
روايات مصرية للجيب
10
فانتازيا
الاسم : شكسبير
Looloo
www.helmelarab.net

مقدمة

اسمها (عبير) ...

لم يكن لها نصيب من اسمها ... فهى تفتقر إلى الجمال الذى يوحى به الاسم .. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين ، باردة الأطراف .. ترتجف رعبًا من أى شىء وكل شىء ...

إنها حتى غير مثقفة .. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كى تكون بطلتنا .. أو بطلة أى شخص سوانا ..

هى لا تلعب التنس ، ولا تعرف السباحة ، ولا تقود سيارات (الرالى) ، وليست عضوًا فى فريق لمكافحة الجاسوسية ، أو مقاومة التهريب ..

لكن (عبير) ـ برغم ذلك ـ تملك أرق روح عرفتها فى حياتى .. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات .. وتملك مع كل هذا خيالاً يسع المحيط بكل ما فيه ...

لهذا أرى أن (عبير) هى ملكة جمال الأرواح ، إذا وجد لقب كهذا يومًا ما ..

ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة ...

ستكون بطلتنا الدائمة .. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه ....

ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم .. ولأنها تختزن فى مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية ، وآلاف الأحداث التى خلقها إبداع الأدباء عبر العصور ..

لذلك وقع عليها الاختيار كى ترحل إلى (فانتازيا) ..

(فانتازيا) أرض الأحلام التى لا تنتهى ..

(فانتازيا) حيث كل شىء ممكن .. وكل حلم متاح ..

(فانتازيا) جنة عاشقى الخيال ....

ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير) .. سنضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى (فانتازيا) ..

وهناك سنتعلم كيف نحلم ...

إن صفير القطار يدوى ، والبخار يتصاعد حول قاطرته .. هو ذا جرس المحطة يدق .. إذن فلنسرع ..!..

لقد حان موعدنا مع الأحلام فى (فانتازيا) ..

★ ★ ★

١ - من هنا نبدأ ..

القطار الصغير المضحك يبتعد متأرجحًا عن مملكة الخنّاقين .. عالم الهند الغامض الذى هو مزيج من روائح التوابل والعطور الثمينة والعرق والبخور ورطوبة الجو .. مع رائحة روث الأبقار المقدسة إياها ...

ويصفو الهواء ببطء ، فتخرج (عبير) رأسها الصغير من النافذة ، تتأمل الأحلام التى ستراها أو التى رأتها من قبل ..

عالم (ديزنى) الرائع ببطّه الثرثار وفئرانه الذكية وغزلانه الرشيقة ، ولابد من حسناء ما حافية القدمين تغنى فى الغابة .. فتهرع الأرانب والسناجب تلاحقها .. وترفرف طيور السنونو حول رأسها ..

يسألها (المرشد) وقد أراح ظهره للوراء :

- « هل تجربين هذا ؟ »

- « لا .. ليس بعد .. لا أرغب فى أن أكون (سنوهوايت) اليوم .. »

ثم تظهر دنيا (المافيا) .. وترى (عبير) رجالاً يرتدون أحذية بيضاء يقاتلون بالمدافع الرشاشة رجالاً يرتدون مثلهم ، ويتوارون خلف سيارات عتيقة تعود إلى الثلاثينات .. إنه عالم (شيكاغو) إبان حظر الخمور .. ومن المحتم أن ترى (كابونى) أو (إليوت نس) فى أية لحظة ...

- « ما رأيك ؟ »

- « تـؤ .. »

هكذا تتوالى آلاف الاحتمالات .. مقاتلو (النينجا) يلوحون بسيوفهم العملاقة .. رجال (الساموراى) يتبارزون بالرماح .. (سندريللا) تهبط الدرج مسرعة وقد جاء منتصف الليل .. رعاة بقر آخرون ..

ثم ترى (عبير) سورًا عاليًا .. هذا غريب ! إنها لم تر أسوارًا فى (فانتازيا) من قبل ..

- « ماذا وراء هذا السور يا (مرشد) ؟ »

قال لها وهو يداعب زنبرك قلمه الجاف الكريه :

- « تك تتك ! من المعتاد أن نبنى سورًا حول أعمال الفنانين الذين خلقوا عالمًا كاملاً متكاملاً .. وبهذا نمنع أفكارهم من أن تختلط بأفكار الآخرين .. »

ثم أردف فى فخر :

ـ « من المفهوم أنهم ـ جميعًا ـ عباقرة .. وغزيرو الإنتاج .. وكلهم قد نجح فى تغيير مفهوم الأدب .. فلم يعد الأمر بعدهم كما كان قبلهم .. »

ـ « مثل (نجيب محفوظ) ؟ »

ـ « طبعًا .. و (الحكيم) و (يوسف إدريس) .. و (هـ . ج ويلز) (وشكسبير) .. و (جابرييل جارسيا ماركيز) .. إلخ .. »

نظرت إلى السور الذى يتحرك ببطء جوار نافذة القطار .. بدا لها الأمر مثيرًا .. كما أن بيت الزواحف نسيج وحده وسط حديقة الحيوان .. هذا نوع من التفرّد خليق بأن يدير الرءوس ..

سألت (المرشد) وهى تطلّ من النافذة أكثر :

ـ « ومن يخصّ هذا القطاع ؟ »

ـ « إنه عالم (شكسبير) .. »

ـ « وأين عالم (نجيب محفوظ) ؟ »

ـ « لا أدرى .. تك تتك ! » ـ وتثاءب ـ « الجغرافيا شىء لا وجود له فى (فانتازيا) .. اليوم قد يكون هنا .. وغدًا قد يكون هناك .. لهذا لم تقابليه قط .. لكنه موجود .. »

عادت تتأمل السور فى تقزز .. وغمغمت :

ـ « أنا أكره (شكسبير) ! »

ـ « لست أول من قال هذا .. (برنارد شو) قالها مرارًا .. ولكن أسبابه تختلف عنك بالتأكيد .. لماذا تكرهينه ؟ »

ـ « لأنه .. لأنه مملّ .. »

قال بلهجة التعاطف :

ـ « ربما .. لكن الجميع يستطيع قراءة (شكسبير) والاستمتاع به .. تلاميذ المدارس الابتدائية يقرءون قصصه فيجدونها شائقة ملأى بالأشباح والقتلى .. وأساتذة الأدب الإنجليزى من عينة د.(لويس عوض) يقرءون (شكسبير) فيجدون فيه منهلاً ثريًا لهذه اللغة .. إن كمّ ما قيل وكتب عن (شكسبير) يفوق بالتأكيد ما قيل عن ابتسامة (الموناليزا) .. »

ثم أضاف باسمًا :

ـ « وكم من فنانين ألهمتهم أعمال (شكسبير) .. بل إننى أشعر بأن فيلم (الملك الأسد) ـ تحفة (ديزنى) ـ ليس سوى مسرحية (هاملت) بعد أن صار أبطالها أسودًا ! »

ومدَ يده إلى الحبل فى إغراء واضح .. وقال :

- « هل نتوقف ؟ تذكرى أنك سترين عالمه بمفردات وقواعد (فانتازيا) .. فلا أحد سوى الله يعلم ما قد تجدين .. »

نظرت له بشكَ .. ثم قالت محنقة :

- « تحاول توريطى فى أى مغامرة كى تستريح منى ! »

- « إن سوء الظن هذا .... »

- « نحن نسمَى هذا (تدبيس) .. »

- « تبًا لهذه الألفاظ السوقية التى تحيل اللغة إلى سُخف .. أنا لست راغبًا فى (تدبيسك) على كل حال .. لكنى نصحتك وكفى .. »

- « حسن .. إذن لنقف ها هنا .. والويل لك إن لم أستمتع بوقتى .. »

قال وهو يجذب الحبل مطلقًا تنهيدة الخلاص :

- « إن أحلامك أوامر يا (أليس) .. »

★ ★ ★

وتترجل (عبير) وتتجه فى تردد إلى إحدى البوابات المتناثرة على طول السور .. وراحت تقرأ المكتوب على اللافتة : (دراما) ..

التفتت إلى (المرشد) الذى كان يمشى جوارها ، ويداه فى جيبى بنطاله ، ورأته يزيل بعض خيوط العناكب المتشبثة بهذه اللافتة .. فسألته :

- « دراما ؟ أنا لا أحب الأحزان .. »

تنهد فى صبر .. وقال وكأنه ينصح طفلاً معتوهًا :

- « هذا هو الخطأ الشائع .. (الدراما) لا تعنى الحزن والمآسى .. (الدراما) هى كل عمل فنى يُؤدَى على المسرح .. أما ما تتحدثين عنه فهو (التراجيديا) أو المأساة .. »

- « يا سلام ! هل تعنى أن (مدرسة المشاغبين) مثلاً عمل درامى ؟ »

- « بالقطع ! » - قالها فى نفاد صبر - « إنها (دراما) تنتمى إلى النوع الكوميدى .. والأحمق ليس هو من لا يعرف .. الأحمق هو من لا يريد أن يعرف أو يأبى تصديق ما يعرف .. »

- « شكرًا .. »

وعادت تتأمل اللافتة فى فضول كهرة صغيرة عابثة .. ثم عادت تسأل :

- « هذه البوابة تقودنا إذن إلى كل عمل فنى يُؤدَى

على المسرح ، وكتبه الأخ (شكسبير) .. فما هو العمل المختار إذن ؟ »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ إن (شكسبير) قد كتب (هاملت) و(ماكبث) و(الملك لير) و(عطيل) و(يوليوس قيصر) و(ترويض النمرة) و(كما تحبها) و .... » - وتوقف حتى يأخذ شهيقًا طويلاً يناسب ما سيقول .. ثم أردف - « .. و (تاجر البندقية) و (العاصفة) و (حلم ليلة صيف) .. و .. الله يعلم ما قد أكون نسيته .. »

- « إذن لن أعرف إلا بالداخل ؟ »

- « حتمًا .. »

- « وهل ستنصرف الآن ؟ »

- « ليس قبل أن أعرف مكانك .. فلا أريد أن أتركك فى قلب كارثة ما .. »

ومدّ يده ليقرع مطرقة على شكل قبضة اليد .. قرعها ثلاثًا كما يحدث فى المسرح .. فانفتح الباب ببطء ، وبرز لها وجه مرعب ..

كان شيخًا أشيب الشعر طويل اللحية ، يتدلى شعر حاجبيه على عينيه ، ويرتدى ما هو أقرب إلى الأسمال ... فما إن رآها حتى صاح متهللاً :

- « المجد للسماء ! (ميراندا) ! لقد قلب (إيريال) الجزيرة بحثًا عنك ! »

نظرت فى شك إلى الرجل الذى هو أدنى إلى المجاذيب .. وهمست سائلة :

- « (ميراندا) ؟ (إيريال) ؟ هل أنت واثق من أن هذه ليست فقرة إعلانية ؟ هل كان (شكسبير) فى ورطة مادية ما حين .... » ؟

ضحك (المرشد) ضحكته السمجة .. وقال وهو يدفعها إلى الداخل :

- « اطمئنى .. أنت فى قلب مسرحية (العاصفة) .. ويؤسفنى أن هذا هو (بروسبرو) العظيم .. أبوك ! »

- « أبى ؟! »

وهنا عرفت أن (المرشد) قد اختفى ..

* * *

٢ - شخصيات .. شخصيات ..

جزيرة معزولة عن العالم ، حولها بحر عجاج تلاطمت أمواجه .. هذا هو عالمها .. والأسوأ أنها مرغمة على الحياة مع هذا الشيخ غريب الأطوار ، ووسط كل هذه الأرواح التى تخدمه ، وتملأ كل صوب بالجزيرة ..

إن إباها (بروسبرو) هو أحد أساتذة السحر العالميين ، ويبدو أنه استطاع أن يحرر كل الأرواح التى سجنتها الساحرة الشمطاء (سيكوراكس) فى جذوع الأشجار .. لهذا تحبه الأرواح وتخدمه بإخلاص ..

كان أظرف الأرواح طرًا وأكثرها ميلاً للدعابة هو (إيريال) .. الروح اللطيفة الشفافة التى تلعب دور ذراع (بروسبرو) اليمنى ها هنا ...

يوجد كذلك مخلوق مريع شبيه بالغوريلا هو (كاليبان) .. وهو ابن الساحرة (سيكوراكس) ..

وهو يملك إخلاص الذئب وظرف العقرب وذكاء الخرتيت .. لهذا لم تره (عبير) يفعل شيئًا ذا قيمة سوى الأعمال الشاقة ، كقطع الخشب وتحطيم الصخور ..

لم يكن لطيف المعشر .. وكانت (عبير) تهابه حقًا ..

أما عن (عبير) نفسها .. فلشد ما أحبت ثوبها الجديد .. إنها ها هنا الحسناء الرقيقة (ميرندا) ذات الستة عشر ربيعًا .. ملأى بالحيوية وحب الحياة ، وقد بدأت تحب أباها الساحر العجوز .. فهى لم تر رجالاً غيره فى هذا العالم ..

لكنها لم تدرك - لصغر سنها - أن هناك مشكلة شنيعة تؤرق الرجل .. إن ابنته تنمو .. ولا يوجد عرسان صالحون فى هذه الجزيرة اللعينة .. وحتى أعظم السحرة لا يستطيع أن يوجد عريسًا لابنته ، ولا يستطيع أن ينقذها من لقب (عانس) الذى ستستحقه بجدارة بعد أعوام ..

إنها ورطة .. لكنه سيجد لها مخرجًا ..

★ ★ ★

وفى ليلة أخبرها بقصة حياته الغريبة ..

إن أباها ـ الذى يبدو كمجذوب ـ كان منذ أعوام دوق (ميلانو) شخصيًا ، وكانت هى أميرة (ميلانو) ..

وكان يهوى السحر ، واستعان بأكبر مراجعه ليغدو حجة فى هذا الفن .. فى الوقت الذى ترك فيه شئون المملكة الدنيوية لأخيه النذل (أنطونيو) ..

ـ « ولماذا تركت الأمور له ؟ »

ـ « لم يكن نذلاً وقتها .. أو هكذا بدا لى .. »

ونجح الأخ النذل ـ بمعونة ملك (نابولى) الذى كان وغدًا ـ فى التخلص من أخيه (بروسبيرو) .. ألقى به فى قارب بلا مجاديف ولا دفة .. وأرسله إلى البحر .. لكن رجلاً شجاعًا يدعى (جونزالو) أخفى بعض الطعام والماء فى القارب ، وبهذا تمكن (بروسبيرو) وطفلته من البقاء حيين حتى وصلا إلى هذه الجزيرة .. لقد لعب العجوز لابنته دور الأب والأم .. ولو لم يكن القارب حاويًا لكتب السحر لمات الرجل سأمًا .. لكنه وجد ما يسليه ..

راحت (عبير) تفكر بعض الوقت ..

لقد بدأت تتذكر أحداث المسرحية إلى حدّ ما .. لكن أين هى العاصفة بالضبط ؟ بالتأكيد هناك واحدة ..

ولم يخب ظنها طويلاً ..

ففى ذات صباح مشرق باسم ، قرر (بروسبيرو) أن يفسد الجوّ قليلاً :

ووقف يردّد بعض التعاويذ السحرية الخاصة بإحداث عواصف ..

وعلى الفور تحول الهواء إلى لون رمادى كئيب .. واحتشدت الغمائم منذرة بالويل .. ثم شق السماء سوط البرق ليلهب ظهر الأمواج .. وانهمر الغيث هتونًا مدرارًا ...

وقفت (عبير) / (ميراندا) ترمق المشهد عاجزة عن فهم هذا المزاج السوداوى لدى أبيها .. ما هى المتعة فى تحويل صباح بهيج إلى جحيم ؟

لكنها أدركت أن الأمر أسوأ مما تظن ..

ففى الأفق ترى سفينة تصارع العباب ..

كأنها دمية فى يد طفل مخبول .. تارة يرمى بها إلى السماء وتارة يخسف بها الأرض ، والجبال تعلو من حولها ثم تعلو من تحتها .

إن هناك بشرًا على تلك السفينة .. وهم يعيشون الآن أسود لحظاتهم ..

- « أبى .. »

- « همم م م ؟ »

سألها فى لامبالاة ساحر تسبب من فوره فى كارثة بيئية .. فقالت :

- « هؤلاء القوم .. هل ستدعهم يغرقون ؟ »

- « حتمًا ! »

- « وهل هذا مسلٍّ حقًا كما يبدو لى ؟ »

- « ليس تمامًا .. لكنى أفعل كل هذا لأجلك ! »

- « وهل قال لك أحد إننى مريضة بالسادية ، أكره أن أنام قبل أن أرى طاقم سفينة كاملاً يغرق أمام عينى ؟ »

- « صه يا (ميراندا) ! أنت لا تفهمين »

قالها فى غموض وهو يرمق السفينة تنقلب فى الأفق بمن عليها وما عليها .. والسماء تستحيل إلى اللون الأسود .. كأنما الظلام قد جاء قبل الميعاد .

★ ★ ★

وهنا تنظر (عبير) إلى ما وراء كتفها لترى ..

كان هناك رجلان يشقان الطريق وسط العواصف .. العواصف التى تلتهم ثيابهما وتبعثر شعريهما وتبللهما كالأسماك ..



لكنها أدركت أن الأمر أسوأ مما تظن .. ففى الأفق ترى سفينة تصارع العباب ..

الرجل الذى يتقدم المسير لا يعبأ ـ كما هو واضح ـ بالعاصفة ولا البرق ، بل هو يرفع ذراعيه إلى السماء كأنما يستمطرها اللعنات ، ويصيح صياحًا لا تميزه جيدًا على هذه المسافة ..

أما تابعه فهو متردد خائف ، يحاول إقناع الأول بالعودة ..

نظرت فى غير فهم إلى أبيها (بروسبيرو) .. فهى لا تعرف هذا الجزء من القصة لكنه قال لها وهو يناولها عباءة تتقى بها السيول :

ـ « هذا هو الملك (لير) وتابعه مهرج البلاط .. ما كان (شكسبير) ليفوّت فرصة هذه العاصفة التى تمنح أبطاله مجالاً لا بأس به للصراخ .. إن مشهدًا كهذا لهو عماد المسرح المأساوى .. »

ـ « هل .. هل تعنى أن هذه مسرحية أخرى ؟ »

ـ « طبعًا .. ألست فى عالم (شكسبير) الثرى ؟

ثم أشار لها نحو الرجلين ..

ـ « هيا الحقى بهما .. وعيشى مع (لير) بعض الوقت .. »

نظرت (عبير) له فى حيرة ..

ثم إنها لفت العباءة حول رأسها وعنقها .. وراحت تخطو بحذر فوق الأوحال التى بدأت تزداد سريعًا .. ياللأرض الزلقة .. ويا للأمطار التى تنهمر بلا توقف كأنما صنابير السحاب جميعًا قد تلفت ..

وبين ثانية وأخرى تتألق الأرض بلونها الأزرق الكهربائى الساطع فيستحيل الليل نهارًا .. ثم .. برووووم ! جلاميد الصخر تصطدم فى أجواز السماء .. يا لها من عاصفة ! عاصفة جديرة بمآسى (شكسبير) الزاعقة حقًا ..

وها هى ذى تدنو أكثر فأكثر من الرجلين ..

لم يكن الملك (لير) يهاب العاصفة .. من العسير أن تصدق أنه ملك بكل الأسمال التى يرتديها ، ونظرة الخبال المطبق فى عينيه .. لكنه يشبه (بروسبرو) بالشعر الأشيب واللحية التى تتدلى حتى خصره ..

كان لا يرى أحدًا .. يكتفى بالنظر إلى السماء ، وترديد لعنات لا تنتهى على ابنتيه الجاحدتين ..

أما تابعه ـ مهرج البلاط ـ فكان مذعورًا متهيبًا لا يعرف ما ينبغى عمله .. وكان يحاول إقناعه بالبحث عن مأوى ، لكنه كان كمن يؤذن فى (مالطة) ، أو يشرح معنى اللون الأزرق لرجل كفيف ..

رآها المهرج بصعوبة وسط كل هذه السيول .. فهتف وهو يزيح عن عينيه الكرات التى تتدلى من قلنسوته ، والتى جعلته يشبه مهرج أوراق اللعب :

ـ « هيه يا سيدتى ! هلا ساعدتنى فى السيطرة عليه ؟ لقد أصابه الخبال تمامًا .. بل هو مجنون .. »

وهنا هوى لسان برق ليصدم شجرة سامقة ، فاشتعلت بالنار وهوت .. إن الجحيم يفغر فاه .. ومن الغريب أنه جحيم مائى خال من النيران تقريبًا .. مدّت (عبير) يدها لتجذب ذراع الشيخ قائلة شيئًا مثل :

ـ « انتظر يا والدى .. إن صحتك ...... »

ولم تكمل العبارة لأن معصم الرجل هوى كجذع الشجرة على وجهها المبتلّ .. ووجدت نفسها تطير لتسقط وسط الأوحال ..

راحت تبصق ما بلعته من طين .. ونهضت غير عارفة هل ما يبلل وجهها هو المطر أم الدمع .. إن هذا الأخ قوى حقًا ..

أما (لير) فراح يهلل وهو يرفع وجهه إلى السماء :

ـ « هلمى يا سماء .. أمطرى .. أغرقى ابنتىّ لا بل ذئبتىّ !! ها ها هاه ! »

هنا رأت رجلاً يهرع إليهم وسط السيول المنهمرة .. كان ضخم البنيان يوحى بالثقة .. وكان مدثرًا بثياب ثقيلة .. رأته يدنو من الشيخ المجنون هاتفًا :

ـ « سيدى الكريم ! حتى المخلوقات التى تعشق الليل لا تجرؤ على الخروج فى ليلة كهذه .. وما كان لطبيعة البشر أن تتحمل عاصفة مثل التى تحاصرنا .. »

ثم أمسك ذراعه بقوة فلم يستطع الشيخ مقاومته .. واقتادهم إلى بقايا كوخ وجده على بعد أمتار من هذا الموضع ..

أشعل النار .. ثم نضا عنه عباءته وأجلس الشيخ قربها ليصطلى .. كذا فعلت (عبير) والمهرج .. حسنًا فعلت .. فهى لم تعد تشعر بقدميها ..

أين (بروسبرو) و(إيريال) من كل هذا ؟ واضح أن جزءًا آخر مختلفًا تمامًا من عالم (شكسبير) قد بدأ .. لقد صار (بروسبرو) وقصته عن دوق (ميلانو) شيئًا بعيدًا جدًّا .. ذكرى من الماضى ..

قال الرجل الذى لا تعرفه ، وهو يهمس فى أذنها :

ـ « أنا (كايوس) .. إيرل (كنت) .. لكنه لن يعرفنى بهذا التنكر .. أردت أن أكون بجواره لأحميه .. »

سألته وهى تفتح كفيها تريد أن تعانق اللهب :
ـ « ما هى المشكلة بالضبط ؟ »
ـ « أحقًا لا تعرفين يا (كورديليا) ؟ »
إذن اسمها هو (كورديليا) من الآن فصاعدًا .. ولكن من هى (كورديليا) ؟
قال لها الرجل قبل أن تسأله :
ـ « على كل حال سأشرح لك كل شىء .. إذ سيكون عليك البدء من هذه اللحظة فى دور (كورديليا) .. »
كان الظلّ يتراقص على وجهه وهو يحكى لها كيف بدأ كل شىء ..

★ ★ ★

الملك (لير) هو ملك بريطانيا .. ولديه ثلاث بنات هن : (ريجان) و(جونريل) و(كورديليا) .. طبعًا الأخيرة هى (عبير) بعد ما صارت فىَ جمال وأناقة أميرة ..
قرر الملك أن يقسم المملكة على بناته الثلاث .. فقد أرهقته أعباء الحكم والتهام الخنازير البرية .. لكنه أراد أولاً ـ وعلى طريقة آباء القصص ـ أن يعرف مدى حبّ كل بنت من بناته له ..

ولهذا ـ فى ذلك اليوم الأسود ـ نادى الفتيات الثلاث ، وأمام البلاط سأل كبراهن (جونريل) عن مدى حبها له .
إن الكلمات سهلة .. ومن الممكن أن تقول إنها تحبه أكثر من الحياة ذاتها .. بل أكثر من كل كلمات يمكن قولها ..
وهكذا فعلتْ لأنها تتمتع بتفكير عملى لا بأس به ..
الأخت الوسطى (ريجان) لم تجد صعوبة هى الأخرى فى اصطناع الكلمات .. وقالت أشياء مماثلة جيدة ..
وكان الملك طفلاً كبيرًا أشيب الشعر ، يحب أن يسمع الإطراء .. لهذا ـ دون تردد ـ وهب كلاً من الفتاتين ثلث المملكة ..
ويأتى دور (عبير) التى صارت (كورديليا) .. أصغر بنات الملك وأجملهن .. وأقربهن إلى قلب أبيها ..
لكن (كورديليا) كانت صريحة جدًا ، لا تبالغ ولا تنافق ، ربما كان هذا عن إيمان منها بأهمية الكلمات (أو هو إيمان بعدم أهميتّها ؟) ..
لهذا قالت فى لهجة هادئة متزنة :

ـ « أنت أبى .. لقد ربيتنى وعنيت بى .. ولهذا أنا ممتنة .. ولهذا أحبك وأطيعك كما ينبغى على كل فتاة نحو أبيها .. لكنى لا أزعم أن حبى لك لن يتبدّل .. ويوم أن أتزوج سيكون جلّ حبى لزوجى ! »

طبعًا هو قول أحمق .. لكن ما حيلة (كورديليا) وقد أرغمها (شكسبير) على هذه الكلمات التى تشى بقلة الذوق ، حيث أرادها أن تشى بالصراحة وكراهية التملق ؟

وكانت ثورة الملك مبررة جدًا فى رأيى :

ـ « طفلة عاقه قاسية ! أنت لم تعودى ابنتى .. لا شىء يأتى من لا شىء .. ونصيبك فى المملكة سيكون لأختيك ! »

وخرجت (كورديليا) البائسة مغضوبًا عليها ، تدارى دموعها ..

على حين أزمع الملك أن يحتفظ بمائة فارس فحسب ، وأن يعيش ضيفًا على قصرى ابنتيه الحبيبتين ..

كان كل ذى عينين فى المملكة يعرف أن الملك مخدوع ، وأن ابنتيه تلاعبتا به ..

لكن ما من أحمق يجرؤ على مصارحته برأيه فى هذه القسمة الضيظى .. هناك أحمق واحد لحسن الحظ هو ....

ـ « أنا .. إيرل (كنت) .. لقد أبديت له رأيى فى حماقته .. »

ويبتسم إيرل (كنت) فى مرارة .. ويردف :

ـ « كنت أكثر منه حمقًا .. لأنه طردنى من المملكة .. نفانى جزاء لى على صراحتى .. إن الصدق غير منجٍ فى هذا البلاط على ما يبدو .. »

ويتقدم إلى (كورديليا) عريسان .. أحدهما ملك فرنسا .. ويبدو أنه كان من الطراز الجاهز الذى يريدها بحقيبة ثيابها .. فقد كان من المحتوم أن تقدم العروس دوطة لزوجها ـ فى ذلك الزمن السعيد ـ ولم تكن (كورديليا) قادرة على دفع مليم ..

وأعطاها أبوها لملك فرنسا غير آسف عليها .. إنها قليلة الأدب طويلة اللسان ، ولن يسبب فقدها ألمًا لأحد ...

وكانت (كورديليا) تعرف أن أختيها ستعاملان أباهما أسوأ معاملة .. لكن ماذا بوسعها أن تعمل ؟

* * *

٣ ـ نفس عنوان الفصل السابق .. فهو يبدو مناسبًا ..

ويواصل إيرل (كنت) سرد القصة ، وهو يضيف مزيدًا من الحطب إلى النار :

ـ « صحَ ما توقعه الجميع .. وتم هذا بسرعة غير عادية .. »

★ ★ ★

ففى قصر (جونزيل) وزوجها دوق (ألبانى) ، بدأت المعاملة السيئة للملك .. كل الخدم يعاملونه بإهمال ولا يطيعونه .. والابنة اللعينة لا تكف عن لومه ، وتأمره بعدم إعطاء الأوامر لأن هذا ليس قصره ..

واستطاع إيرل (كنت) ـ متنكرًا ـ أن يلتحق بخدمة مليكه .. فقد أراد أن يكون معه دومًا ليذود عنه ما يتوقعه من أذى ..

وبالنسبة للملك الشيخ كان لا يعرف لإيرل (كنت) اسمًا غير (كايوس) .. كان هناك أيضًا مهرج البلاط ..

وهو مخلص للملك حقًا .. لكنه ـ ككل مهرجى المسرحيات ـ يتلفظ بالحِكَم العظمى ، ولا يكف عن التفلسف مدعيًا أنه يتلفظ بمزاح أبله لا أكثر ...

يقول للملك وهو يضحك :

ـ « قديمًا كان الآباء يطلبون أبناء مطيعين ، واليوم يطلب الأبناء آباء مطيعين ! إن العربةَ هى التى تجرّ الحصان الآن ! »

ويحاول تسلية الملك بدعاباته السخيفة .. دون جدوى .. فمزاج الملك صار صالحًا لتعكير نهر (التيمز) نفسه ..

★ ★ ★

وتتمادى (جونريل) فى تعذيب أبيها الشيخ ..

فى ذات صباح رائع طردت خمسين فارسًا من أتباعه .. لأنهم كثيرون ويسببون فوضى فى القصر .

هنا ثار الملك ودعا عليها بعقوق الأبناء لو رزقت بهم ، أو بالعقم أساسًا .. وغادر قصرها ليقيم عند ابنته الثانية (ريجان) ..

لكن (ريجان) لم تكن ملاكًا إذا قورنت بأختها ..

عاملت أباها معاملة كريهة ، وأعلنت أنها لن تسمح سوى بخمسة وعشرين فارسًا فى قصرها ..

كان هذا فوق قدرة الملك على الاحتمال .. لهذا غادر قصر ابنته حانقًا يغلى غضبًا .. وقد بدا لمهرجه المخلص أن عقله قد تلاشى شعاعًا ..

عندها بدأت العاصفة .. العاصفة التى بدأها الشيخ (بروسبرو) فى مسرحيته الخاصة .. والتى لم تثر فزع الملك لأنه كان يحوى إعصارًا داخله ..

وكان هذا اللقاء ...

سألت (كورديليا) إيرل (كنت) حيث جلسا حول النار :

- « والعمل ؟ »

- « ستعودين إلى فرنسا طبعًا لتخبرى زوجك بالأمر .. »

- « وأبى ؟ »

- « سيكون فى أمان فى قصرى حتى تعودى ... »

- « أعود بماذا ؟ »

- « يا له من سؤال ! طبعًا بجيش عرمرم أوله فى (ألباتى) وآخره فى فرنسا .. يجب أن نحارب هاتين الذئبتين ونسترد ما ورثتاه .. »

تأملت الشيخ العجوز الذى غالبه النوم ، فنام جوار النار .. ورق قلبها لشيخوخته .. فى سن كهذه ما كان له أن يرقد فى العراء بلا ثياب ، مبتلاً جائعًا خائفًا ...

سيكون الانتقام مريعًا ....

★ ★ ★

وفى الصباح عبرت (المانش) إلى فرنسا .. وتوجهت إلى قصر زوجها الحبيب .. إن الناس يحبونها ها هنا على كل حال ..

كان زوجها وسيمًا .. أحد نبلاء القرون الوسطى حقًا .. وكان يمزج فرنسيته بالإنجليزية ليجعل كلامه مفهومًا لها ..

رأته يتقدم منها فى حماس بقامته الرشيقة ..

وفتح ذراعيه صائحًا :

- « حمدًا لله على سلامتك واحبيبتى (كورديليا) .. »

الكلاب تتواثب حولها فرحة ، والوصيفات يلتففن حولها فى حماس .. وسمعت زوجها يسألها :

- « تبدين مرهقة .. هل هناك شىء ما ؟ »

هنا سمعت أناسًا يتكلمون بلغة غريبة .. ليست الإنجليزية ولا الفرنسية .. وتكفل شىء فى ذهنها بجعلها تعرف أنها اللغة الدانماركية .. والتفتت لترى فى ردهة القصر شابًا ناحلاً يروح ويجىء ممسكًا بخنجر .. وقد بدا فى حالة عصبية بالغة ..

وسمعته يهتف كأنما يخاطب نفسه :

- « أكون أولا أكون .. تلك هى المسألة ! »

بدا الضيق علـى ملك فرنسا .. وصـاح بالفرنسية فى الشاب :

- « يا أمير (هاملت) .. هلا خرست قليلاً ؟ إننـا نناقش مصيبـة والـد (كورديليـا) الـذى يوشـك علـى الهلاك .. »

غمغم (هاملت) وهو يتأمل خنجره باسمًا :

- « وأنا أناقش مصيبة والدى الذى مات بالفعل .. إن لكل منا همومه ومشاكله .. لكن مسرحيتى أنا هى أهم مسرحيات (شكسـبير) بشـهادة الجميع .. ومن حقى أن أتكلم كما أريد .. »

- « مسرحية عن شخص متردد ؟ »

- « هى أفضل من مسرحية عن أب عقّته بناته .. »

كاد الحراس حول ملك فرنسا يفتكون بـ(هاملت) .. لكن هذا الأخير فرد ذراعيه فى استسلام ليمنحهم صدره :

- « هلموا .. إنكم ستريحوننى من كل هذا العناء ! »

هتف ملك فرنسا فى رجاله أن توقفوا ..

- « سنترك المكان لهذا المخبول .. »

ورآتـه (عبـير) / (كورديليـا) يبتعدُ .. فصـاحت فى قلق :

- « ألن نكمل كلامنا ؟ »

- « فيما بعد يا ملاكى .. فيمـا بعد .. إن اسمك الآن هو (أوفيليا) .. وعليك أن تمرحى قليلاً مع هذا البدين .. »

- « بدين ؟ »

- « (شكسبير) قـال فـى المسرحية إنـه بدين .. لكن هذا مستحيل مـع طبيعتـه العصبيـة هـذه .. والآن وداعًا . »

وابتعد عن عينيها مع حراسه وكلابه ..

وأدركت (عبير) أن القصر يبدو مختلفًا عمـا كـان الآن ..

إنه قصر ملك (الدانمارك) العظيم ...

★ ★ ★

ويواصل (هاملت) تأملاته :

- « أكون أو لا أكون .. تلكم هى المسألة .. »

أترى الأنبل فى العقل أن أتحمل نبال القدر ..

أو أشهر سلاحى فى وجه خضمّ من المتاعب ..

من ثَمّ أضع حدًّا لها ؟

أموت .. أنام .. ثم لا شىء ... »

جلست (عبير) ـ التى صارت (أوفيليا) ـ على



جلست (عبير) ـ التى صارت (أوفيليا) ـ على مقعد تصغى لهذه الأبيات ..

مقعد تصغى لهذه الأبيات ـ الأشهر من نار على علم ـ وأدركت أن الفتى غارق فى بحر ذاته بحيث لا يراها ولا يشعر بوجودها ..

فتحت فاها لتقول شيئًا .. لكنه عاد يصيح فى جنون :

ـ « وإلا فمن ذا الذى يتحمل سياط وسُخرية الزمن .. وظلم الظالم .. وكبرياء المغترّ .. وعذاب الحبّ المهين ..

وبطء العدالة .. وما يلقاه ذوو الكرامة على يد التافهين .

وهو يستطيع أن ينهى كل هذا بطعنة من خنجر مسلول ؟ »

وهنا رآها فابتسم .. وعاد إلى عالمنا ..

نظر لها كأنما يطلب رأيها فيما قاله .. فقالت فى تردّد :

ـ « حسن .. لم أفهم كل شىء .. أعرف أنك تقول هذا .. لكن ربما لو حاولت ترجمته إلى العربية لكان من الممكن أن ... »

مستنكرًا هتف وهو يرمقها :

ـ « إنه بالعربية ! هذا (المونولوج) الذى سال له لعاب الممثلين فى كل الأجيال .. وأداه (لورانس أوليفييه)

و (بن كنجسلى) و (محمد صبحى) و (يوسف شاهين) .. إنه قطعة من الفن الرفيع ! »

صاحت مبهوتة :

ـ « رفيع .. ربما .. لكنى لا أفهم حرفًا منه .. »

ـ « هذا غريب يا (أوفيليا) .. من الطبيعى أن أبطال المسرحية يفهمون جيدًا لغة المسرحية .. أنا ـ فى هذه الأبيات ـ أتساءل عما إذا كان على المرء أن ينتحر أم لا .. لعل الانتحار يحلّ مشاكل عديدة .. لكنى خائف مما بعد الموت .. »

ـ « ولماذا لا تقول ذلك وينتهى الأمر ؟ »

ـ « إن هذا تهريج ! »

كذا صاح واحمرّ وجهه ، واحتقنت أوردة عنقه .. وأردف :

ـ « هذا هو ما يجعل (شكسبير) (شكسبير) .. اللغة الفخمة المتقعرة .. والاستطراد .. إن أى بطل لـ (شكسبير) لا يقدر على طلب كوب من الماء ، إلا إذا ألقى ربع ساعة من الشعر .. »

ثم راح يسألها فى تهكم وقد عاد إلى جو المسرحية :

ـ « أجميلة أنت ؟ إذا كنت شريفة جميلة فإن شرفك ينبغى أن يحفظ جمالك من الابتذال .. »

واستطرد وهو يمسك بمعصمها :

ـ « إذا كان لا بد أن تتزوجى ، فلتتزوجى رجلاً أحمق .. فعقلاء الرجال يتحولون على أيديكن إلى خراف .. وداعًا ! »

وجدت (عبير) نفسها تندمج فى الجوّ .. فقالت بذات اللهجة المسرحية الفخيمة :

ـ « آه .. يا لهذا العقل النبيل الضائع ! لسان أمير وبصر عالم وسيف محارب .. أينتهى إلى هذا الحضيض ؟ هذا الحضيض ؟ »

وهنا انزاح الستار وبرز رجلان .. ما إن غادر (هاملت) المكان ..

كان أحدهما الملك والآخر (بولونيوس) أباها .. وكانا يسمعان الحوار وهما مختبئان خلف الستار كما يحدث فى كل المسرحيات ..

قال الملك فى ضيق :

ـ « إن حديثه مضطرب لكنه ليس مجنونًا .. إن الكآبة تعشش فى روحه ، وأخشى أن تفرخ وتفقس شيئًا خطيرًا ..

أرى أن يسافر (هاملت) إلى انجلترا .. فلعل البحر يصرف عنه ما كاد يستقر فى فؤاده .. »

قال (بولونيوس) :

- « لا بأس بها فكرة يا مولاى .. لكن إن رأيت من المناسب فسل أمه الملكة أن ترجوه بعد الحفل ، كى يكشف لها عن سر حزنه .. ولتكن معه حازمة .. ولسوف أتوارى أنا خلف ستار لأسمع ما يقولان .. »

- « إن جنون العظماء لا يمرّ دون مراقبة .. »

★ ★ ★

بدأت (عبير) تسترجع مسرحية (هاملت) إلى حدّ ما ..

من الذى لا يذكر أحداثها أو سمع عنها بشكل أو بآخر ؟

(هاملت) أمير (الدانمارك) الذى توفى أبوه بشكل غامض .. وعلى الفور تزوجت الأم أخ القتيل .. عم (هاملت) .. (كلوديوس) ..

وصار (كلوديوس) هو ملك (الدانمارك) ..

كان هذا محزنًا للفتى .. لكن الأسوأ هو شك خالطه فى أن يكون عمه هو قاتل أبيه .. وكاد هذا الشك يقتله ..

وهنا يخبره (هوراشيو) صديق (هاملت) - بقصة غريبة ..

إن الحراس فى القلعة يرون شبح الملك الأب كل ليلة ، أو كذا يزعمون ..

ويصمم (هاملت) على مقابلة الشبح .. ويكون له ما أراد .. ويتم اللقاء فى القلعة عند منتصف الليل ، وعلى مرأى من (هوراشيو) وأحد الحراس ..

قال له الشبح أخبارًا غريبة حقًا :

- « أى (هاملت) .. أصغ إلىّ .. لقد قيل للناس إن حية لدغتنى وأنا نائم فى بستان القصر .. ولكن - فاعلم - إن الحية التى لدغتنى تلبس الآن تاجى ! »

فصاح (هاملت) مذعورًا :

- « يا لروحى المتنبئة ! أعمّى هو الذى ...؟ »

- « نعم .. فبينما أنا نائم فى البستان ، تسلل عمك إلىّ بزجاجة من سمّ (الهيبونا) اللعين .. فصب فى أذنىّ تلك القطرات القاتلة التى تسرى سريعًا كالزئبق فى فتحات الجسد .. وهكذا انتزعت من الحياة وأنا مازلت بخطاياى .. لم أتطهر أو ألتمس الغفران .. بل أرسلت إلى الحساب .. »

بالطبع راح (هاملت) يتلوى .. ويسدّ أذنيه .. ويأتى بتلك الحركات المسرحية التى تدلّ على شدة الألم .. على حين واصل الشبح تعذيبه :

- « إن كانت فيك نخوة فلا تسكت على قاتلى ..

ولكن لا تدبّر أى مكروه لأمك .. دعها للندم ولأشواك الألم .. والآن وداعًا ..

وداعًا .. لا تنسنى يا (هاملت) ! »

ويختفى الشبح ، فيجد (هاملت) فرصة رائعة لإظهار براعته فى التمثيل .. فيظهر صدمته وكراهيته لعمه .. ثم ينادى (هوراشيو) والحارس يخبرهما بما سمع .. ويجعلهما يقسمان على الطريقة اللاتينية (هِك إيوبيك) - أى هنا وفى كل مكان - على ألا يذيعا السرّ ..

ويصمم على أن ينتظر ليرى .. ويلعب دور المجنون الذى يتيح له أن يقول كل شىء فى أية لحظة ..

لماذا لم يقتل عمه فورًا مادام قد تأكد من خيانته ؟ يرى كثير من النقاد أن (شكسبير) لو فعل هذا لانتهت المسرحية بعد عشر دقائق ولخرب بيته .. لهذا اضطر (هاملت) إلى أن يبقى على شكه وتردده خمسة فصول كاملة .. وهذه هى نقطة ضعف المسرحية وسبب ترهلها الدرامى فى رأى البعض ..

ما علينا ..

بدأ (هاملت) يمارس كل طقوس الجنون ، حتى

أثار دهشة كل رجال البلاط .. وظن (بولونيوس) الحكيم أبو (أوفيليا) - أن الحبّ هو سبب ما أصاب الفتى .. إن الأمير يحب ابنته بجنون وهذا هو تفسير كل شىء ..

وكما رأينا (هاملت) فى البداية ، يهيم الأمير على وجهه فى أرجاء البلاط ، يقرض الشعر ، ويحلم بالانتحار .. لكنه لا يفعل شيئًا على الإطلاق ..

والجميع يتساءل : ماذا دها الأمير الشاب ؟

★ ★ ★

هنا جاء دور (المسرحية داخل مسرحية) ..

لقد صمّم (هاملت) على أن ينصب كمينًا لعمه يعرف به ما إذا كان الشبح صادقًا ، أم هو شيطان يتلاعب به ..

يقرر دعوة فرقة مسرحية لتلعب فى البلاط مسرحية قديمة اسمها (اغتيال جونزاجو) .. وقصة المسرحية تبدو مألوفة بعض الشىء ..

إنها تحكى عن دوق يقتله ابن عمه ويتزوج أرملته ..

هذا هو الكمين ! سيراقب وجهى الملك والملكة - أمه - فى أثناء العرض ، ولسوف يعرف ما إذا كانا آثمين أم لا ..

وجاء اليوم الموعود ..

وجلس البلاط كله حول الممثلين المسرحيين ، وبدأ العرض .. لكن (هاملت) لم ير ما كان ينتظر رؤيته .. ولم يتعرف ما يسمعه من حوار ..

إن المسرحية تحوى قتلاً .. لكنه ليس القتل المتوقع .. ويهمس بغيظ فى أذن مدير الفرقة :

- « هذه ليست مسرحية (اغتيال جونزاجو) ..

بخجل قال الرجل :

- « للأسف يا سيدى الأمير .. لم نجد الممثلين مستعدين لها .. فقررنا أن نلعب مسرحية أخرى بها خيانة وقتل أيضًا ! »

- « يا فرحتى ! وما اسم هذه المسرحية ؟ »

- « اسمها .. اسمها (عطيل) يا سيدى ! »

★ ★ ★

راحت (عبير) / (أوفيليا) ترمق الممثلين ؛ حيث جلست جوار (هاملت) الحانق ، الذى أفسد غباء الممثلين خطته المحكمة ...

على المسرح ظهر (عطيل) .. عملاق أسمر أقرب إلى الزنوج .. شديد المراس حارّ الدماء قصير الفتيل .. ما إن تشعله حتى ينفجر فيك ..

(عطيل) - كما سنعلم - هو بدوى مغربى نزح إلى (فينيسيا) - البندقية - وخدم فى جيشها ، حتى ترقّى وصار قائدًا عظيم الشأن ..

ومازال المترجمون حائرين فى الترجمة المثلى لاسم (أوتيللو) الذى صاغه (شكسبير) لبطله ؛ فمنهم من رأى أن يُترجم بـ (عطاء الله) ، ومنهم من رأى أن يُترجم بـ (عطيل) .. وهو الاسم الذى شاع واشتهر ..

إن مسرحية (عطيل) هى دراسة نفسية شائقة لانعدام الثقة بالنفس فـ (عطيل) أسود البشرة فى الأربعين من عمره ، لهذا لا يجد فى نفسه من الصفات ما يؤهله للاحتفاظ بحبّ حسناء بيضاء هى (ديدمونة) ..

وشعرت (عبير) بيد (هاملت) تنهضها .. فعرفت أنها ستكون هى (ديدمونة) أمام هذا الوحش الإفريقى الكاسر (عطيل) ..

كان (عطيل) فى هذه اللحظة بالذات يصغى إلى (ياجو) ..

وبئس ما يقول (ياجو) !

★ ★ ★

٤ ـ شخصيــات .. شخصيــات ..

(ولا علاقة لهذا بالفصل الثانى)

يقول (ياجو) حامل علم (عطيل) :

ـ « لقد وجدت المنديل مع (كاسيو) .. ماذا تصنع لو قلت إننى سمعته يتحدث عن (ديدمونة) يقول كذا وكذا .. كما يفعل مرضى النفوس الذين ما إن يظفروا بمعشوقاتهم لا يملكون الكتمان .. »

يسأله (عطيل) مهمومًا :

ـ « وماذا قال ؟ »

ـ « إنه .. إنه كان بقربها .. معها »

يصرخ (عطيل) فى هلع :

ـ « بقربها ! معها ! المنديل ! ليعترف ثم ليُشنق .. بل ليشنق ثم ليعترف .. إننى أرتجف لمجرد تصورى تلك الخيانة .. لعنة الله عليهما ! »

ـ « حسن .. إن (كاسيو) قادم .. أريد منك أن تتوارى .. واسمع ما سيقول (كاسيو) .. »

ويختبئ (عطيل) .. وهنا يدخل (كاسيو) البرىء المسرح .. هذا هو ما يحدث فى المسرحيات دومًا .. كان بوسعه أن يرى (عطيل) يختبئ ، وكان بوسعه أن يسمع ما قيل ويدافع عن نفسه .. لكن الناس صمٌ فى المسرح دائمًا لا يسمعون إلا ما يريد المؤلف أن يسمعوه ...

وبهذا المنطق ذاته .. صاح (ياجو) والمفترض أنه يكلِّم نفسه :

ـ « الآن سأسأل (كاسيو) عن فتاته (بيانكا) اللعوب .. سيجيب بالتبسّم والإشارات .. ولسوف يجنّ (عطيل) وهو يرى ويسمع .. »

ويدخل (كاسيو) .. فيقول له (ياجو) بخبث :

ـ « حاول التماس الشفاعة من (ديدمونة) .. »

ـ ثم يهمس حتى لا يسمعه (عطيل) ـ « لكن (بيانكا) ستحقق لك ما تريد .. »

طبعًا يقع (كاسيو) فى الشرك ، فيبدأ فى الكلام عن (بيانكا) ضاحكًا :

ـ مسكينة هى ! إنها تحبنى بجنون .. لقد جاءت لشاطئ البحر منذ أيام وأنا وسط القوم ، فأحاطت عنقى بيديها وراحت تتأرجح وتبكى .. هاهاها ! »

(عطيل) فى مكمنه يوشك علـى الجنـون .. والأخ (كاسيو) لا يخطئ مرة واحدة ، فيذكر اسم (بيانكا) .. هكذا يريد (شكسبير) ..

وانصرف (كاسيو) فخـرج (عطيـل) مـن مكمنـه يولول ويعدّد محاسن الخائنة (ديدمونة) التى خانتـه مع هذا الوغد (كاسيو) ..

إن (ياجو) يتلاعب بقائده .. يوحى إليه بأن امرأته تخونه ، بينما هى الشرف والطهر ذاتهما ..

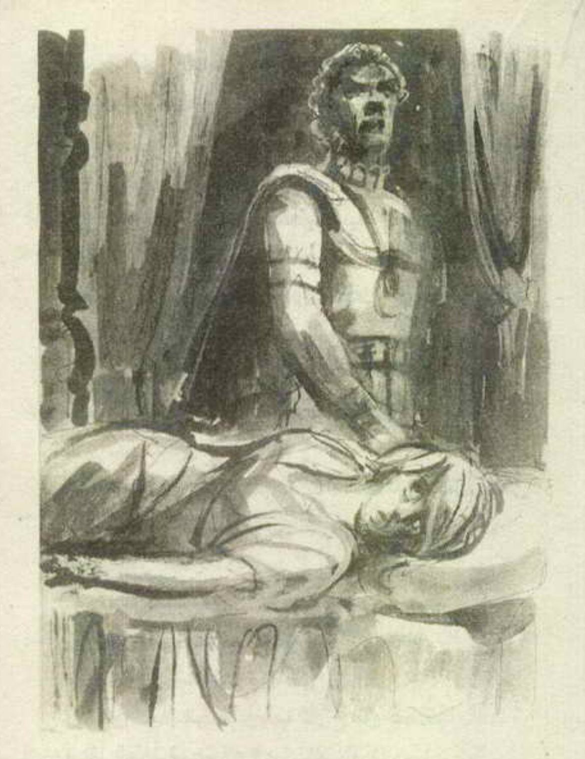
والنتيجة هى أن (عطيل) يقرر خنق محبوبته هذه الليلة ..

وها هى ذى (عبير) فى مخدعها فى دور (ديدمونة) ..

إنهـا مذعـورة .. فهـى تعلـم جيـدًا أن (عطيـل) سيقتلها وهى بريئة .. لكن ما جدوى محاولة التغيير ؟ إن أملهـا الوحيـد هـو أن تنتهـى المغـامرة سريعًا قبـل أن ...

يدخل (عطيل) متظاهرًا بالرقة .. لكنها ترى الشر فى عينيه .. فتغمض عينيها ..

قال وهو يتأملها فى أثناء نومهـا والمصبـاح جـوار فراشها :



وها هى ذى (عبير) فى مخدعها فى دور (ديدمونة) .. إنها مذعورة .. فهى تعلم جيدًا أن (عطيل) سيقتلها وهى بريئة ..

- « لنطفئ المصباح .. إن أطفأتك يا وزير النور يمكننى أن أشعلك من جديد .. لكنى متى أطفأت نارك يا أبدع مثال للجمال ، فلا نيران تقدر على أن تعيد إليك هذا النور والبهاء .. (يلثم شعرها) .. يا للعطر الزكى الذى يغرى العدل بتحطيم سيفه ! »

تفتح (عبير) عينيها تتأمل هذا الثور الأسمر الذى يرمقها فى حنان مرعب ، وتتساءل .. هل سيفعلها الآن حقًا ؟

قال لها فى هدوء صارم :

- « هل صليت الليلة يا (ديدمونة) ؟ »
- « نعم سيدى .. »
- « استغفرى الله لذنوبك .. فأنا لا أريد قتل نفس خاطئة .. سأجول قليلاً حتى تفرغى .. »
- « أتذكر القتل ؟ »
- « أذكره .. »
- « إذن لترحمنى السماء ! »
- « آمين .. أقولها من قلبى .. »

ونهض قليلاً مبتعدًا ريثما تفرغ من صلاتها ..

وهنا انطفأ المصباح وساد الظلام ..

نهضت (عبير) من الفراش مذعورة ، فالأسود

العظيم المتجانس يجثم على أنفاسها .. راحت تتلمس المكان حولها متوقعة طعنة (عطيل) النجلاء فى صدرها .. فى أية لحظة ..

لكنها بهذا تنسى شيئين .. أولاً : (ديدمونة) ستموت مخنوقة لا طعنًا .. ثانيًا : لا أحد يموت بهذه السهولة فى مسرح (شكسبير) .. لا بد من خطبة طويلة عصماء توشك أن تزهق أرواح المتفرجين قبل روح القتيل ..

إن الظلام يعدّ المخدع لجريمة قتل ...

لكنها ليست جريمة قتلها هى ..

هى ذى ترى - إذ تعتاد عيناها الظلام - جسد إنسان يغفو فى المخدع حيث كانت تنام ..

وقبل أن تفهم أو يصيبها الذعر من جديد ، رأت من ينسلّ فى خفة من باب المخدع .. هل هو (عطيل) ؟ لا .. إنه أصغر حجمًا .. ثم إنه يتصرف كالمتآمرين ، و (عطيل) كان يتصرف بثقة رب الدار ...

ورأت المتسلل المتشح بالظلام يستلّ خنجرًا ... ثم - دون تردد - يولج السلاح المميت فى صدر النائم ...

قال النائم شيئًا ما ثم واصل نومه إلى الأبد ..

كاد الهلع يفتك بها .. هرعت إلى باب المخدع وجرت .. ما هذا ؟ ما معنى ما يحدث ؟

كان الظلام سائدًا بالخارج فيما عدا ضوء المشاعل ، وأدركت أنها لم تعد فى قصر البندقية الفخيم ، بل هى فى قلعة بدائية من قلاع القرون الوسطى .. إنها مسرحية أخرى ولا ريب ... لكن ما هى ؟

الغريب كذلك أنها صارت أقل رعبًا وأقوى شخصية وثباتًا .. لنقل إنها خائفة .. لكنها خائفة على حامل الخنجر لا منه !

وسمعت صوت القادم .. كان يحمل الخنجر الملوث بالدم .. وهامسًا قال لها :

- « قضى الأمر .. ألم تسمعى شيئًا ؟ »

- « لا شىء سوى البوم وصراصير الليل .. »

قالتها غير عالمة لم قالتها .. ورأته يرمق يديه الدمويتين فى استبشاع :

- « هذا منظر شنيع .. »

- « من الحمق أن تقول ذلك .. »

- « كلا .. لقد سمعت صارخًا يصيح بى : لن تنام يا قاتل الرقاد .. (جلاميس) - (كودور) - (ماكبث) لن ينام ! »

آهاه ! إذن هى مسرحية (ماكبث) .. وهى تلعب دور (ليدى ماكبث) الزوجة التى أغواها الطموح .. فجعلت زوجها يقتل ..

تقول له فى قسوة وثبات :

- « اذهب والتمس بعض الماء تغسل به آثار الدم .. لا تنس أن تلوث الحارسين النائمين ببعض الدم كى تلصق بهما التهمة .. »

رأته ينظر ليديه غير مصدق .. يداه ترتجفان بقوة :

- « دم ! لو اجتمعت بحار العالم جميعًا كى تغسل هذا الدم ما استطاعت .. »

قالت فى قسوة لم تتبدّل :

- « هاتان يداى بلون يديك .. لكنى أخجل أن يكون لى قلب جبان كقلبك .. »

ودون تردد عادت إلى المخدع لتملأ كفيها ببعض من دم القتيل ..

ثم عادت لتسكبه على الحارسين ...

فما إن فرغت حتى دعت زوجها المذعور إلى غرفتهما .. فما ينبغى أن يراهما أحد ها هنا ....

★ ★ ★

اسمه (ماكبث) .. القائد الأسكتلندى الكبير .. الذى يعمل تحت إمرة الملك طيب القلب (دنكان) ..

بدأت متاعبه حين قابل العرافات الثلاث فى الفلاة .. فحيينه .. وقلن له إنه سيكون سيد (جلاميس) و(كودور) .. بل وملك أسكتلندا ذاتها ..

أما عن صديقه (دنكان) فتنبأن لـه بأنـه سينجب ملوكًا ، لكنه لن يغدو ملكا ! وحين عاد (ماكبث) إلى داره ، أخبر زوجته (عبير) ـ معذرة .. أعنى ليدى (ماكبث) ـ بنبوءة العرافات ...

وسرعان ما تحقق أول شقين من النبوءة .. فماذا يمنع من تحقق الشقّ الثالث ؟ وتلعب (عبير) دور (إبليس) بالنسبة له .. وتروح ليلاً نهارًا تزين له الأمل .. لِمَ لا يكون أكثر جرأة ؟ لِمَ لا يكون أكثر إيجابية ؟ إن الطموح لا يتحقق لنفس ضعيفة .. و(فاز باللذة الجسور) و (وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا) ..

راحت تغريه بقتل الملك (دنكان) حتى يخلو له العرش ..

وجاءت الكارثة حين قرر الملك العادل أن يزور قلعة (ماكبث) ضيفًا على قائده الباسل ..

رتبت ليدى (ماكبث) كل شىء .. سوف تخدّر حارسى الملك ، ثم يتسلل الأخ (ماكبث) إلى مخدع الأخير ليذبحه ..

وقد تمّ كل شىء .. وترك ابنا الملك أسكتلندا مكتئبين .. فلم يعرف أحد قط أن (ماكبث) هو القاتل ..

وصار (ماكبث) ملك أسكتلندا ..

★ ★ ★

لكنه لم يشعر بالراحة على الإطلاق ...

فهو ما زال يذكر نبوءة العرافات .. ويذكر أنهن بشرن (بانكو) صاحبه بأنه سينجب ملوكًا .. معنى هذا أن أولاد (بانكو) سيرثون ما قتل (ماكبث) الملك لأجله .. وإذن هو قد كافح من أجل أبناء صديقه !

وراح يردد فى مرارة :

ـ « صار التاج على رأسى عقيمًا .. ولن يخلفنى طفل من صلبى .. ليست العبرة فى أن تكون ملكًا .. العبرة أن تكون آمنًا .. »

وسرعان ما تقرر ليدى (ماكبث) أن تقنع زوجها بقتل صديقه (بانكو) وولده ..

ولهذا دعت أشراف أسكتلندا ونبلاءها إلى مأدبة كبرى ..

وكانت الخطة ناضجة .. والخيانة قد أثمرت ...

فقط عليهما أن يجنيا ثمارها ..

★ ★ ★

٥ - اجتمـــاع الإدارة ..

كانت (عبير) منهمكة فى سعادة فى الإعداد لمقتل (بانكو) ، وكان (ماكبث) متحمسًا لهذا الجزء بشدة .. فهو قد بدأ يستسيغ الأمر بعد ما كان مترددًا تجاه اغتيال الملك (دنكان) ..

لكن (ماكبث) تلقى رسالة حملها إليه أحد الفرسان المغبرين ، قرأها فامتقع وجهه .. وقال لها وهو يطوى الورقة :

- « هناك اجتماع مهم الليلة فى مسرح (جلوب) .. إن (شكسبير) يريدنا ! »

كادت تقول إنها لا تفهم .. ثم تذكرت أن هذه هى (فانتازيا) حيث لا مستحيل ولا حدود لزمان أو مكان ..

★ ★ ★

المكان : مسرح (جلوب) .. فى مقاعد الصالة ..

الحدث : (ويليام شكسبير) يلتقى بأبطاله للحديث عن مشكلة طارئة ..

فى فضول راحت (عبير) تتأمل (شكسبير) الذى قالوا إنه أعظم من كتب للمسرح .. أروع من كتب بالإنجليزية .. أفضل من عبّر عن نفس الإنسان قبل عبقرى روسيا (دستويفسكى) ...

كان أصلع الرأس .. وكأنما يعوض ذلك بإطالة الشعر على جانبى رأسه كى يغطى عنقه ، وكانت له نظرة ثقيلة سمجة لا توحى بالعبقرية ، وشارب رفيع كالذى يهوى الأوغاد تربيته .. الخلاصة أنه بدا لها مخيبًا للآمال .. ثم تذكرت أنها تراه كما رسموه لا كما هو فى الواقع ..

كل أبطال قصصه يرمقونه فى انبهار وتقديس .. إنه أبوهم الذى أوجدهم فى العالم ، وخلّد ذكراهم ، ما ظلّ طلبة كلية الآداب يتحدثون عن (العاصفة) ، وما ظلّ كل عاشق يُسمّى بـ (روميو) ، وما ظلّ طلبة المستوى الرفيع مطالبين باستذكار (هاملت) ، وما ظلّ هناك مسرح كلاسى فى العالم كله ..

ها هم أولاء جميعًا : (هاملت) و(عطيل) و(ماكبث) و(الملك لير) و(روميو) و(بروسبرو) و(تاجر البندقية) و(يوليوس قيصر) و(أورلاندو) و(بتروشيو) و ... و ....

جلس (شكسبير) على منصة المسرح ، وسط المشاعل التى ترمى ظلالها فى كل صوب .. وتجعله كرسم تأثيرى قديم ...

وبصوت رخيم قال :

- « يسرنى أنكم جميعًا ها هنا .. حتى أنت يا (ماكبث) .. لقد ناديتك وأنت منهمك فى التدبير لاغتيال (بانكو) .. »

قال (ماكبث) من مقعده فى الصالة بصوت متهدج قليلاً :

- إن أوامرك لاتُرَد يا سيدى .. »

ابتسم (شكسبير) فى حزن .. وقال :

- « إننى أتذكر مسرحيتك جيدًا .. كنت قد كتبتها عام ١٦٠٣ عندما تولى (جيمس الأول) حكم البلاد .. لكنها لم تُطبَع إلا عام ١٦٢٣ ، بعد وفاتى بسبع سنوات ، وكانت فى مجلد واحد مع (هاملت) و (يوليوس قيصر) .. إنها قصة واقعية استمددتها من قراءاتى فى جريدة تاريخية .. وسمحت لنفسى أن أغير بعض الشىء فى حقائق التاريخ .. فمثلاً لم يكن (دنكان) بالملك الشهم العادل الذى وصفته .. بل كان وضيعًا جبانًا .. »

ثم مسح جبينه وقال مستدركًا :

- « ما علينا .. تصوروا أن أجرى عن هذه المسرحية لم يتجاوز مائة جنيه ؟! لكننى - حقًا - كنت ثريًا .. وكنت أملك أسهمًا فى مسرحين .. واعتدت أن أقرض الناس بالربا .. »

دعونا الآن نتوقف قليلاً لنعرف شيئًا أو شيئين عن هذا المؤلف العظيم .. إن (عبير) لا تعرف ولا يهمها أن تعرف ما سنقول الآن ..

إن (ويليام شكسبير) أديب انجلترا العظيم ، هو قروى ولد فى قرية (ستراتفورد فون آفون) عام ١٥٦٤

كثير من النقاد يشك فى وجود (شكسبير) .. البعض يقول إنه أكذوبة كبرى اخترعها أديب آخر هو (فرنسيس بيكون) ، الذى كان يخجل من أن يعرف أحد أنه يكتب للمسرح .. ويقولون إن اللقب الخاص بـ(بيكون) هو (الذى يهزّ رمح الملك) أى Shake Spear .. وهذا ما أوحى له بالاسم ..

هناك من زعم أن (شكسبير) هو رجل عربى اسمه (الشيخ زبير) ..

ولا أعرف ـ بأمانة ـ أساس هذا الزعم ...

لكن أكثر علماء اللغة يؤكدون أن (شكسبير) هو (شكسبير) ..

عاش (شكسبير) حياته ما بين (لندن) وقريته .. كان يجد نفسه حقا فى المسرح .. وكل مسرحياته العبقرية هذه إنما كتبها على سبيل (أكل العيش) .. وهذا ما يجعل النقاد فى ذهول من ظاهرة (العبقرية حسب الطلب) هذه .. والأكثر غرابة أنه لم يكن يكتب مسوَدات أو يشطب .. فكل مسرحية لدينا هى الصياغة الأولى من قلمه .. كما هى !

لكن مأساته الحقيقية كانت هى زواجه الفاشل من امرأة تكبره بثمانية أعوام هى (آن هاثاواى) .. فقد نغصت حياته وأرهقته .. ويقول النقاد المدققون إنها ألهمته بأفظع مسرحياته : (هاملت) عبقرية التردد .. و(ماكبث) عبقرية الطمع والخيانة .. و(عطيل) عبقرية الخداع والغيرة .. و(لير) عبقرية الجحود والعقوق .. ويا له من إلهام !

أنتج (شكسبير) أربعًا وثلاثين مسرحية ، ومائة وأربعًا وخمسين قصيدة .. ثم مات فى أبريل عام ١٦١٦ عن عمر يناهز اثنين وخمسين عامًا ..

لكن الأدب الإنجليزى ـ والعالمى ـ لم يعد بعده كما كان قبله ...

فحق له الخلود .. وحق له هذا الموضوع المتميز فى (فانتازيا) ..

★ ★ ★

جلس (شكسبير) يتأمل فى رضا أبطال قصصه .. كل هؤلاء بمن فيهم من ملوك ومرابين وشحاذين وحفارى قبور .. ومنهم من هو دانماركى أو بريطانى .. أو إيطالى .. كلهم من بنات أفكاره ..

راح يطمئن على أحوالهم فى رقة :

ـ « (هاملت) .. أما زلت مترددًا بشأن الانتحار أو قتل (كلوديوس) ؟

وأنت يا (شايلوك) .. لا تحاول استرداد دينك أرجوك .. هل تحسنت صحتك أيها الملك (لير) ؟ قلت لك يا (بروتوس) ألا تترك الفرصة لـ(أنطونيو) كى يواجه الجماهير من بعدك .. »

ثم نظر إلى (عبير) وابتسم :

ـ « وأنت .. بطلتنا الأنثوية الدائمة .. أنت (أوفيليا) و(جولييت) و(كاترين) و(ميراندا) و(ديدمونة)

و ليدى (ماكبث) .. الحق أنك تعيشين خبرات لا حصر لها .. »

قالت (عبير) فى كياسة :

- « إن هذا يشعرنى بالدوار .. فلا قصة تكتمل .. كلما بدأت أعيش أحداث قصة أجدنى مطالبة بالبدء من جديد .. »

ضحك متفهمًا وقال :

- « لا يثيرن هذا حفيظتك .. إن كل الممثلات فى التاريخ تمنين أن يخضن هذه التجربة التى تخوضينها الآن .. »

قال له (هاملت) وقد بدأت طبيعيته المتوترة الملول تتحرك :

- « إن جلوسنا معك ها هنا ليسعد النفس يا ريّس .. لكنى أظن أن هناك أمرًا جللاً دعاك لجمعنا .. »

قال (شكسبير) لـ(هاملت) بتلك الابتسامة الرفيقة :

- « مهلاً يا بنى .. أعرف أنك مشتاق لرؤية تأثير مسرحيتك على الملكة وعلى عمك .. لكنى دعوتكم بالفعل لأمر جلل .. »

وأجال نظره فى الموجودين .. وغمغم مردفًا :

- « الحقيقة أن عالمنا يتآكل .. »

لم يبد الفهم على أى من الجالسين ..

ونهض (عطيل) العملاق الأسود ليقول فى عصبية :

- « عالمنا يتآكل ؟ كيف ؟ »

- « هذه هى الحقيقة .. نحن نتلاشى .. »

- « كيف ؟ »

قال (شكسبير) وهو يجيل عينيه فى الحضور ، وقد استحوذ على اهتمامهم بالكامل :

- « لا أدرى .. لكن قطاعات هائلة من هذه المملكة تختفى يومًا تلو الآخر .. أمس بحثت عن أبطال مسرحية (كما تحبها) - (أورلاندو) و(روزاليند) - فلم أجدهم .. بحثت عن الغابة التى تجرى فيها الأحداث فلم أجدها .. كل شىء كتبته لم يعد هناك .. »

قال (ماكبث) فى قلق :

- « لهذا لم يأت أحد منهم ها هنا .. »

- « ولم يكن هذا كل شىء .. فمنذ أسبوع لم أجد أبطال مسرحية (حلم ليلة صيف) .. ومن المؤسف أننى نسيت نصها ولم يعد بوسعى أن أكتبها من جديد .. »

ورفع عينيه إلى السقف ، مقطبًا فى خطورة :

ـ « إن عالم (شكسبير) فى (فانتازيا) يضيق يومًا بعد يوم .. وأعتقد أننا نواجه خطرًا داهمًا .. فلو تلاشيتم أنتم لتلاشيت أنا كذلك .. ولغاب ذكرى .. »

أشار (هاملت) إلى (ماكبث) فى عصبية ، وباتهام قال له :

ـ « أنت السبب دون شك .. »

ـ « هل جننت ؟ »

ـ « إن جرائمك التى لا تنتهى قد جعلتنا جديرين باللعن .. فأنت أشرّ أبطال (شكسبير) طرًا .. والوحيد الذى قتل دون مبرر كاف .. »

احمرّ وجه (ماكبث) ، وهتف ولعاب الحماسة يتطاير من فمه :

ـ « يا سلام ! ألم يقتل (عطيل) فتاة طاهرة بريئة ؟ ألم تقتل أنت عمك ؟ »

ـ « بلى .. لكن (عطيل) كان ضحية مؤامرة جعلته يجنّ غيرة .. وأنا قتلت قاتل أبى .. أما أنت فكنت تقتل .. تقتل لماذا ؟ من أجل الطموح لا أكثر ولا أقل .. »



ورفع عينيه إلى السقف ، مقطبًا فى خطورة :
ـ إن عالم (شكسبير) فى (فانتازيا) يضيق يومًا بعد يوم ..

هنا مدَ (ماكبث) يده لينتزع السيف من قرابة ، ويصيح فى (هاملت) :

ـ « كفاك إهانات ! فلنسوّ الأمر إذن رجلاً لرجل .. والويل لمن يصرخ أولاً : توقف ! »

ـ « كفى يا أبنائى ! »

كذا صاح (شكسبير) فى حزم .. فالجو بدأ يتكهرب ، ويبدو أن أفضل بطلين لقصصه يوشكان على أن يفتكا ببعضهما .

لم يقتصر الأمر على هذا ... فقد اشتبك العجوزان (بروسبرو) والملك (لير) فى شجار يليق بسنّهما ، وراحا يجذبان اللحى ويتبادلان اللكمات .. فتدخل (عطيل) ليمسك برقبة كل منهما ـ كالدجاجة ـ ويبعدهما عن بعضهما ..

ـ « كفى يا أبنائى ! »

عاد (شكسبير) يكرر تحذيره .. فتوقف الجميع عن القتال ، وأرهفوا السمع إلى ما سيقول ..

ـ « ليس الخطأ خطأ واحد منكم .. إنما هى مجموعة أسباب أدت لما يحدث .. وأعتقد أن عندى فكرة معقولة عنها .. »

وفتح أنامل يده اليسرى ليعدّ عليها بيده اليمنى ..

أولاً : لم يعد هناك من يهوى القراءة .. من يقرأ لا يفهم .. ومن يفهم لا يتذكر .. ومن يتذكر لا يفعل شيئًا بهذا الذى يتذكره ..

ثانيًا : التلفزيون يحرز خطوات سبق لا يمكن مجاراتها .. وهو لا يهتم كثيرًا بعالم (شكسبير) .. أو يقدمه بسطحية بالغة ..

ثالثًا : السوقية تزحف وتنتصر .. ومن الذى يبالى بأحزان الملك (لير) فى عصر (كوز المحبة انخرم) ؟

رابعًا : السطحية تتفشى كالوباء .. إن هموم (هاملت) المعقدة لا تناسب مشاهدى تمثيلية الساعة السابعة ، الذين اعتادوا المعانى القريبة الواضحة .. الفرح هو الفرح .. الحزن هو الحزن .. التعالى هو التعالى .. لكن لا شىء اسمه المزيج الخافت بين العواطف .. لا شىء اسمه اللون الرمادى ..

إن الزمن الذى مات فيه (عبد الحليم حافظ) ، وكسدت دواوين الشعر ، وتلخّص الفن التشكيلى فى صورة المرأة التى تلثم الثعبان إياها ؛ هو ـ حتمًا ـ ليس زمنًا مناسبًا لـ (شكسبير) وأبطاله ...

هنـا نهـض (أنطونيـو) للمـرة الأولـى .. وقـال لـ(شكسبير) بلهجة خطابية :

ـ « وما العمل يا ريّس ؟ هل نقبل المـوت طواعيـة أم نحارب من أجل حياتنا ؟ لقد حاربت طيلـة حياتى كما تعلم .. ولن تضيرنى حرب أخيرة ضروس .. »

وهتف (هاملت) بدوره :

ـ « نكون أو لا نكون .. تلك هى المسألة .. »

ابتسم (شكسبير) فى رضا .. وقال :

ـ « هذا هو ما توقعتـه منكم .. ومازلـت يا لـورد (أنطونيو) قادرًا علـى تهييـج الجمـوع منـذ خطبـت خطبتك العصمـاء فـى أهـل (رومـا) .. هـل تذكـر تلك الخطبـة الرائعة ؟ وأنـت يـا (هـاملت) تبدو لـى قـادرًا علـى التخلص مـن ترددك حين يتطلـب الأمـر ذلك .. »

قـال (بروسبرو) بلهجـة عقلانيـة تناسـب لحيتـه الشهباء :

ـ « حسن .. كلنا معك .. ولكن ما هو الطريق ؟ »

ـ « سؤال جيد .. »

قالهـا (شكسبير) فى تـؤدة ، ثم مدّ يده إلى لفافة

مـن ورق كـانت أمامـه علـى المنضدة ، وفردهـا أمـام العيون ..

رأت (عبير) أنها أقرب إلى خارطة .. كأنها موقعٌ عسكرى يتم التخطيط لغزوه .. ماذا يريد قوله بالضبط ؟

مدّ (شكسبير) يده فالتقط بعض دبابيس الضغط ، وقام بتثبيت الخارطة على الجدار من أطرافها الأربعة ..

ـ « هـذا رسـم كروكـى لمملكـة (شكسبيـر) فى (فانتازيا) .. »

وأشار إلى رقعتين على أطراف الخارطة :

ـ « هنا كانت (كما تحبها) .. وهنـا كـانت (حلم ليلة صيف) .. وكما ترون : يبدو الخطر دانيًا جدًّا من مسرحيتى (الملك لير) و (العاصفة) .. أعتقد أننا سنفقدهما قريبًا جدًّا .. »

ونظر حولـه ليتيقن مـن أن العيـون كلهـا ترمـق الخارطـة باهتمـام .. ثـم أردف وهـو يشـير إلـى نقطـة على الرسم :

ـ « كل الدلائل تشير إلى أن التآكل يبدأ من هنـا .. من الشمال .. يوجد شىء ما هنا ، هو المسئول عن اختفاء مسرحياتى .. »

قال (ماكبث) فى ثقة :

- « أعرف هذا الموضع .. إن الساحرات الثلاث قابلننى هناك »

- « ربما .. إن الحدس عسير بالنسبة لرسم مبسَط كهذا .. »

ثم قال بلهجة عملية كأنه قائد عمليات خاصة ، قد فرغ من شرح الموقف لرجاله ، وهو الآن يدعوهم للتحرك :

- « مهمتكم هى التحرك إلى هناك .. ومعرفة عدونا المحتمل .. وتدميره .. »

سأله (ماكبث) فى لهفة :

- « وبعدها يمكننا الاستمرار فى ممارسة حياتنا ؟ »

- « طبعًا .. إن بقى بعضكم حيًّا بعد كل هذا .. »

ثم تنهد ورفع عينيه ليرمق الجميع بنظرة نافذة .. وسألهم :

- « هل من أسئلة ؟ »

★ ★ ★

٦ - ساعة الصفر ..

الآن يبدأ التحرك نحو الهدف ..

الهدف هو معرفة المسئول عما حلَ بعالم (شكسبير) الساحر ..

وفى ضوء الفجر وقفت الخيول تصهل ، وتبعثر الغبار بسنابكها ، وتقذف الدخان من مناخرها ..

على حين راح الأبطال يحتشدون للحركة ..

(هاملت) يستعد لركوب حصانه الأبيض ، شاعرًا بأهميته كبطل (شكسبير) الأول .. ولربما ابنه البارّ ..

(عطيل) فوق حصانه ، عملاق أسمر يطوح بسيف هائل الحجم يمينًا ويسارًا .. فهو أستاذ فى الكرّ والفرّ .. ومكسب حقيقى لأى جيش يضمه فى صفوفه ...

الملك (لير) المتهالك ، و(بروسبرو) السقيم على جواديهما .. لن يكون لهما دور كبير ، لكن إجادة الأخير للسحر قد يكون لها دور مهم ..

(ماكبث) الطموح يتأكد من أن سيفه على ما يرام ..
بينما (بتروشيو) بطل مسرحية (ترويض النمرة) يتحدث بالإيطالية إلى تابعه ، ويتأكد من أن سرج جواده يحوى كل ما يحتاج إليه ..

حتى (روميو) العاشق الإيطالى الرقيق لحق بهم ، وراح يستعد للركوب فى هذه الحملة الفريدة من نوعها ..

راحت (عبير) تجوّل بينهم .. وتقول لكل منهم كلمة تشجيع .. فتارة تتحول إلى (ديدمونة) حين تحدث (عطيل) ، وتارة هى (أوفيليا) حين تحدث (هاملت) ، وتارة هى (كاترين) حين تحدث (بتروشيو) ..

هنا خطر لها أن الحملة تبدو مبعثرة أكثر من اللازم ..

لابد من قائد .. وإلا تحول الأمر إلى مستعمرة من النمل ركلت جحرها قدم عابثة .. ولتناثر الأبطال فى كل صوب يفعل كل منهم ما يشاء ..

دنت من (بروسبرو) أكبرهم سنًا لتسأله فى كياسة :

- « أ ... هل استقر أمركم على قائد ؟ »
نظر لها العجوز مفكرًا .. ثم قال دون تردد :
- « يا له من سؤال ؟ أنا طبعًا .. فأنا أكبرهم سنًا .. »

هنا صاح الملك (لير) فى حنق :
- « أى سخف ! أنا أقاربك فى السن .. ثم إننى ملك ! »

هنا صاح (هاملت) فى لهجة من انتهى من دراسة الموضوع :
- « كلاكما شيخ متهالك .. أنا أمير (الدانمارك) وأهم شخصية كتبها (شكسبير) بشهادة النقاد جميعًا .. أعتقد أن الأمر مهيأ لى كى أتولى قيادة هذا الرهط .. »

قال (ماكبث) وعلى وجهه أمارات الاشمئزاز :
- « تفو ! أنت متردد .. والجميع يعرف بطأك فى اتخاذ القرارات ، أما هذه الحملة فتحتاج إلى رجل طموح .. رجل يعرف ما ينبغى عمله .. وأنا - (ماكبث) - هو ذلك الرجل .. »
- كأن هذا القاتل كان ينقصنا .. »
قال (عطيل) فى ثقة :

ـ « أنا قدت جيوشًا حقيقية يا سادة .. وأعرف تمامًا كيف أقود حفنة من المترددين البائسين مثلكم .. »

هنا قاطعه (أنطونيو) مزدريًا :

ـ « هه ! لكنك لم تصنع أمجاد (روما) مثلى .. لم تدخل المدن المفتوحة مكللاً بالغار ، وحولك أعضاء مجلس الشيوخ ، وأمامك اثنا عشر (لكتورًا) يحملون الفئوس .. يا سادة إننى اعتدت النصر حتى صار طبيعة ثانية لى .. وأعتقد أننى قادر على قيادة هذه الحملة .. »

تفكر الملك (لير) قليلاً .. ثم قال :

ـ « هل تريدون رأيى ؟ »

ـ « لا ! »

ـ « إنه رأى شيخ حكيم .. »

ـ « إننا نعرف الكثير عن قراراتك الحكيمة هذه .. ألم تعط (انجلترا) كلها لطفلتين عاقتين شريرتين ؟ »

تجاهل (لير) الملحوظة الأخيرة .. فلم يكن الوقت مناسبًا للشجار ..

وقال وهو يشير إلى (عبير) :

ـ ستكون هذه قائدتنا .. (كورديليا) الحبيبة .. »

تصاعدت الأصوات غير مصدقة :

ـ « (أوفيليا) ؟ »

ـ « (جولييت) ؟

ـ « (ديدمونة) ؟ »

ـ « (كاترين) ؟ »

ـ « (ميراندا) ؟ »

ـ « إن هذا سخف ! »

وأضاف (ماكبث) فى لهجة متعقلة :

ـ « ما أتعس قومًا جعلوا امرأة قائدتهم ! إن مأساتى كلها هى أننى خضعت لزوجتى التى كانت أقوى شخصية ، وأنفذ تأثيرًا .. »

قال (لير) بنفس اللهجة المتعقلة :

ـ « لكن (كورديليا) ـ أو كما يسميها كل منكم ـ تختلف .. إننا سنجعلها رمزًا لوحدتنا كما يخضع البريطانيون لملكتهم ، لكنهم لا يطيعونها ، ولا يدعونها تدسّ أنفها فى كل شىء ! إن الشورى هى أساس تحركنا .. لكننا لن نتحرك إلا بناءً على أمرها هى ، وبعد تمحيص وتبادل آراء .. »

قال (هاملت) فى رضا :

- « لا باس .. على الأقل سيلغى هذا عنصر التنافس بيننا .. فما كنت لأنضم لحملة تحت قيادة ذلك الوغد (ماكبث) .. »

قال (ماكبث) ليردَ التحية بألعن منها :

- « وأنا أفضل السير وراء ظربان على السير خلفك يا عزيزى .. »

- « شعور متبادل .. »

صاح (لير) فى حزم رافعًا يديه للسماء :

- « أما وقد هدأت مشاعرنا ، وأحببنا بعضنا .. فلنبتهل إلى الربَ أن يزلل لنا صعاب هذه الرحلة .. »

رفع الجميع وجوههم إلى السماء ، وراحوا يرددون الأدعية الإيطالية والإنجليزية والدانماركية والعربية .. أما (أنطونيو) فراح يبتهل لـ (زيوس) و (هيرا) و دزينة كاملة من آلهة (الأولمب) الوثنية ..

أما (عبير) فلم تدر كيف ترفض أو ماذا تقول ..

إنها لم تقد قطة فى حياتها .. فكيف تطالب باكتساب مواهب القيادة فجأة ؟ وتقود من ؟ تقود أسوأ مجموعة من السادة ضخام الأجساد معقدى النفوس عرفها التاريخ !

ثم إنها لا تعرف المطلوب منها بالضبط ....

لقد قال (شكسبير) إن مملكته تتآكل بسبب التلفزيون والسطحية والسوقية ومقت القراءة ..

فهل ستجد هذه الأشياء واقفة تكشر عن أنيابها ، وتمزق كل من تسوّل له نفسه أن يدنو منها ؟

عندها ستكون مشكلة .. فكيف يمكن قتل السطحية ؟ إن (عبير) لا تذكر أنها قتلت أى شىء سطحى فى حياتها .. إلا تلك الحشرات التى تدخل حجرتها من النافذة ليلاً ، لتملأ المكان صخبًا ، ولا تموت إلا بالشبشب البلاستيكى الأحمر وبعد عناء .. فهل قتل السطحية عسير كقتل هذه الحشرات ؟

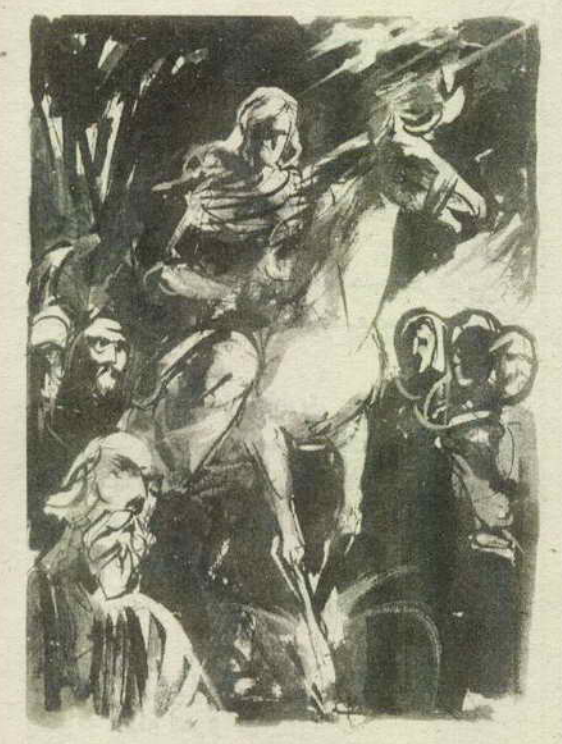
كأنما قرأ (بروسبرو) أفكارها .. قال لها :

- « أراهن على أن (برنارد شو) هو المسئول عن كل هذا ! »

- « من ؟ »

- « (برنارد شو) الأديب الإيرلندى الساخر .. فهو يكره (شكسبير) ويرى أن مسرحه ميلودرامى ردىء لا يناسب صفوة المثقفين .. »

ثم نظر إلى السماء .. فرأى قرص الشمس يعلو أكثر ..



ركبت حصانها .. لم يكن الأمر عسيرًا كما هى العادة فى (فانتازيا) ..

قال لها وهو يملأ رئتيه بالهواء :

ـ « هلمى أعطينا إشارة البدء أى (ميراندا) الشجاعة .. »

ركبت حصانها .. لم يكن الأمر عسيرًا كما هى العادة فى (فانتازيا) .. وهنا تذكرت أنها لا تعرف ما ينبغى قوله .. فهمست فى أذنه :

ـ « ماذا أقول ؟ »

ـ قولى : إلى الشمال ! وتعمدى إطالة حرف (الألف) فى (الشمال) ! »

ـ « حسن .. »

ورفعت عقيرتها صائحة فى حسم :

ـ « إلى الشمااااااااال ! »

★ ★ ★

عَبْر الغابات يمضى الموكب ..

تتقدم (عبير) الباقين على حصانها ، وهى ترمق الطبيعة فى انبهار .. فهو عالم غريب يجمع ـ فى ثلاث كيلومترات ـ مياه (البندقية) وغابات (انجلترا) وضبابها .. وثلوج (الدانمارك) .. وفيه الجزر والجبال .. عالم هو مزيج غريب من عشرة بلدان على الأقل ...

صوت (روميو) قادم من خلف يترنم بأغنية إيطالية ملأى بحروف (الراء) يقولها بصوت (تينور) عميق ..

أما (هاملت) فهو عاكف على إلقاء مونولوجاته الدنماركية الحيرى .. على حين يتسلى الملك (لير) بالدعاء على ابنتيه الشريرتين ...

نهر .. أشجار .. أعشاب .. سنجاب يفرّ من هنا لهناك .. طائر يولّى ذعرًا إذ سمع صوت سنابك الخيل ..

خور صغير على جانب الطريق .. الصخور مغطاة بالطحالب .. مسقط مياه صغير .. فلاحةً عاكفة على حلب بقرتها فى سطل خشبى ، فما إن ترى الموكب حتى تتوقف لترمقه فى فضول ..

راع يعزف على الناى تحت شجرة ، وحوله خرافه الشبيهة بندف من قطن أبيض بعثرته يد عابثة على الكلأ ..

يتوقف عن العزف ليرمق الموكب .. ثم يسأل بلكنة إنجليزية عتيقة الطراز :

ـ « هل أنتم ذاهبون للقتال يا سيدى ؟ »

يجيبه الملك (لير) وهو مستمر فى السير :

ـ « نعم .. نحاول إنقاذ مسرحيات (شكسبير) .. »

ثم يغمغم بصوت مسموع :

ـ « حتى هذا الراعى وخرافه سيتلاشون تمامًا لو فشلنا فى مهمتنا .. »

ـ « لن نفشل .. »

يقولها (عطيل) وهو يتحسس سيفه فى غمده .. وتستمر المسيرة الصامتة .....

★ ★ ★

وجاء الليل .. وصار المشى عسيرًا ..

الظلام يغلف الأشجار .. ويرمى عباءته على الكلأ كأنما يريد حمايته من البرد حتى الصباح ..

قال (بروسبرو) لـ (عبير) :

ـ « قد حان الوقت لنخيم ها هنا .. أصدرى أوامرك إذن .. »

ـ « وماذا أقول ؟ »

تنهد فى نفاد صبر .. وقال بتؤدة :

ـ « قولى : سنخيم ها هنا .. واضغطى على مقطع (هنا) .. »

صاحت كما قال ..

فترجل الرجال جميعًا ، وشرعوا يربطون جيـادهم ، ويريحونها من السروج ..

قال (هاملت) وهو يتفقد المكان :

- « نحتاج إلى نار .. ولكن كيف نشعلها ؟ »

قال الملك (لير) وهو يتشمم الهواء :

- « صبرًا .. لا بد من عاصفة رعدية ، ولسان برق يشعل النار فى أحد جذوع الأشجار .. إن هذا وارد فى كل مسرحياتى .. »

ثم أردف بعد هنيهة :

- « ولو أنه لا يوجد ما يبشر بهذا .. »

- « هذا لحسن حظنا .. فليس من المستحب أن نمرّ بعاصفة رعدية ، ونحن فى العراء بهذا الشكل .. »

هنا قال (بروسبرو) وهو يجلس القرفصاء :

- « صبرًا .. ليست هذه بمشكلة على ساحر عظيم مثلى .. »

وأخرج من كمه لفافة صغيرة .. فتحها فإذا ما بها مسحوق أصفر .. التقط بعضًا منه بين سبابته وإبهامه ، وتمتم عليه بعبارات غامضة .. ثم ألقى به فوق جذع خشبى ملقى على الأرض ..

وسرعان ما تعالت ألسنة اللهب ...

أحيانًا يكون وجود السحرة مفيدًا ..

وحول النـار جلسـوا يتسـامرون .. وعـاد لهـم (ماكبث) من وسط الأشجار بأرنب برىّ .. فراحوا يشوونه على النار ويصطلون ..

جلست (عبير) ترمقهم خلسة فى ضوضائهم ..

وجوه خشنة .. ووجوه ناعمة .. شباب وشيوخ ..

لكن أجملهم - والحق يقال - كان هو (روميو) .. العاشق الإيطالى الرقيق .. الذى أحب (جولييت) وتحديا بحبهما صراع الأسرتين المستحكم ..

ولكن .. أين (روميو) ؟ إنها لم تره منذ حلّ الظلام .. و ....

وهنـا سمعت الصرخة قادمة من قلب الغابة المظلمة ....

* * *

٧ - الخطــــــر دان ..

هبَّ الرجـال جميعًـا كأنمـا سـرت الكهربـاء فـى أجسادهم ..

التمعت السيوف فى وهج النار ..

ومع السيوف التمعت عيونهم تحفزًا ..

كان هناك سؤالان ينتظران إجابة فورية :

أولاً : من صرخ ؟ ثانيًا : من أين جاء الصراخ ؟

قالت (عبير) وهى مازالت جالسة كما هى ، وقد أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة :

- « لا داعى للتساؤل .. إنه (روميو) .. لقد ظفروا به ! »

تبادلوا النظرات ، وأدركـوا للمرة الأولـى أن الفتـى غير موجـود معهـم .. والتمعت عينـا (عطيل) فـى وجهه الأسود .. وهتف :

- « الصبى الإيطالى الرقيع ! هذا حق .. لقد اختفى .. ومنذ متى ؟ وكيف لم نشعر إلا الآن ؟ »

وتساءل (هاملت) وعيناه تدوران فى محجريهما بجنون :

- « من هم الذين ظفروا به ؟ »

قالت (عبير) بنفس اللهجة الفاترة الحزينة :

- « وكيف لى أن أعرف ؟ إنهـم أعداؤنـا وكفـى .. أعتقد أن مسرحية (روميو وجولييت) قد اختفت من مملكة (شكسبير) بدورها .. »

قال (أنطونيو) وهو يدور حول النار :

- « هذا حـق .. لقد كـان الفتـى يمشـى فـى نهايـة الموكب يترنم بالغناء وقد سكت صوته منذ فترة لكننـا لم نلحظ .. »

أما (هاملت) فقال فى ضيق :

- « إذن .. فالخطر ليس أمامنا .. بل هو خلفنا .. »

- « إنها قاعدة حربية رومانية قديمة .. حين يطاردك العدو اختف .. وانتظر حتى يمرَّ .. ثـم هـاجم مؤخـرة جيشه .. »

- « يا لها من خسارة ! »

صاح (ماكبث) فى عصبية :

- « لـم تصـر خسـارة بعد .. يمكننـا دخـول الغابـة والظفر بمهاجمه .. أو ربما أنقذناه هو .. »

قال (هاملت) واضعًا ذؤابة سيفه فى اللهب :
- « ليست فكرة جيدة .. إن اتحادنا قوة .. وليس من الحكمة أن نعطى مهاجمنا فرصة الظفر بنا متفرقين .. »
- « أنت جبان كالعادة .. »
- « وأنت وقح كالعادة .. »
قال (عطيل) ووجهه يلتمع كقناع من الأبنوس فى وهج النار :
- « على كل حال لن يكون فقد الإيطالى الرقيع خسارة فادحة لنا .. فأمثاله يفسدون فى الأرض ، وكم كنت أغار على (ديدمونة) منهم ! »
حانقًا صاح (بتروشيو) :
- « دعك وشأن الإيطاليين أيها الزنجى .. أتمنى أن يأتى دورك سريعًا ! »
همست (عبير) فى أذن (بروسبرو) الذى افترش الكلأ جوارها :
- « إنهم لا يطيقون بعضهم .. خاصة (هاملت) و(ماكبث) .. »
هزّ الشيخ رأسه فى حكمة .. وهمس بدوره :

- « هذا طبيعى .. إنهما بطلا أشهر مسرحيتين لـ (شكسبير) .. ولو لم يغر أحدهما من الآخر لبدا لى أننى جاهل بطبائع البشر .. »
رأت (عبير) أن الوقت قد حان لإنهاء هذا السخف .. فصاحت من مكانها :
- « كفى ! لا مزيد من المهاترات .. لن يدخل أحد الدغل للبحث عن (روميو) .. ومنذ الآن لن نتحرّك إلا جماعة .. »
- « لكن ..... »
- « لا لكن .. لقد أغلق باب المناقشة .. »
وساد الصمت .. ثم عاد الرجال لجلستهم حول النيران ..
أما هى فراحت تلهث .. شأنها شأن السلبيين الذين يعانون لإخراج شحنة من الإيجابية من أعماق صدورهم ..
وشعرت بوجهها يلتهب انفعالاً .. لقد فعلتْها .. فعلتْها ببراعة !

★ ★ ★

أراح الشيخ (بروسبرو) رأسها على صدره العجوز ، وراح يرمق النجوم ..

وسمعت صوت أنفاسه التى تدخل وتخرج بمشقة ..
تذكرت من جديد أنها ليست (عبير) .. بل ابنته الشابة (ميراندا) ..
وسمعته يغمغم :
- « أرجو ألا يطول هذا البحث .. »
مغمضة العينين سألته :
- « لِمَ ؟ هل هناك ما يشغلك ؟ »
- « بالطبع .. لقد كان كل شىء ممهدًا كى أجد لك عريسًا .. لكن القصة توقفت فى ذروتها .. ولا أدرى متى ستستمر .. »
- « هل يمكننى أن أعرف ما سيحدث بعدها ؟ ماذا بعد العاصفة ؟ »
تنهد .. وقال بصوت جعل النعاس يسرع إلى عينيها :
- « إن العاصفة هى كمين أعددته لأخى وابنه (فردناندو) .. كان مركبهما سيغرق جوار الجزيرة ، وتحملهما الأمواج إلينا .. كنت قد اخترت (فردناندو) ليكون عريسًا لك .. »
- « تزوج ابنتك لابن عدوك ؟ »

- « ولِمَ لا ؟ إنه شاب طيب ولا ذنب له .. »
وتثاءب قبل أن يقول فى شرود :
- « ترى ماذا يفعل (إيريال) العزيز ؟ أتمنى ألا يكف عن مراقبة (كاليبان) .. فالوغد شرس الطباع ويمكن أن يسبب كارثة .. »
- « همممممم ! »
قالتها وهى تغيب فى عالم الأثير ..

★ ★ ★

استيقظت على برودة الفجر ..
وفى البدء حسبت أنها فى دارها بـ (غمرة) تستعد للخروج ، وفتح مكتب (الكمبيوتر) ، وشراء شطيرتين من الفول من المحل على الناصية .. ثم العودة لانتظار أول الزبائن .. روتين كل صباح ..
ثم فطنت إلى أنها تعيش الواقع الآن .. وواقعها هو خيال لا أول له ولا آخر .. خيال غرسه (دى - جى - ٢) فى عقلها .. خيال يحوى عالمًا اسمه (فانتازيا) .. و (فانتازيا) هذه تضمّ مملكة (شكسبير) ..
وها هى ذى فى مملكة (شكسبير) تستعد مع أبطاله لخوض حرب غريبة من نوعها ..

هو ذا (عطيل) يغسل وجهه فى مياه جدول قريب ..
و(هاملت) يضع السرج على صهوة حصانه ..
أما الملك (لير) فهو ما زال راقدًا على العشب ، وهو يغط بصوت كفيل بإيقاظ الموتى ..
أمس كان (روميو) الوسيم بينهم .. لكنه اختفى فى ظروف غامضة ..
ماذا كان دور (روميو) فى مسرحيته ؟ لم تعد تذكر .. نست الحبكة برمتها .. هذا طبيعى .. لقد تلاشت مسرحية (روميو وجولييت) من عالمها تمامًا .. ولو لم يتم عمل شىء ما فلسوف تتلاشى المسرحيات الباقية كلها ..
دعتهم إلى التحرك .. وببطء تعالت أصوات حوافر الجياد ، وهى تتقدم نحو الشمال .. وجهتهم الغامضة ..

★ ★ ★

كان حصانها يمشى جوار حصان (مارك أنطونيو) ..
تذكرت أنها لم تعرف بعد دورها مع (أنطونيو) .. هل هى (كليوباترا) ؟ ولماذا لم يلتقيا بعد فى عمل مشترك ؟
كان وسيمًا .. يرتدى الدروع .. وقد نفش صدره

كبرياءً وغرورًا فوق صهوة جواد أشدَ منه غرورًا وجلالاً ..
قائد رومانى لا يعرف الهزيمة ، ولن يعرفها ..
سألته فى كياسة :
- « مرحبًا يا لورد (أنطونيو) .. »
نظر لها نظرة عابرة ثم قال فى كياسة :
- « التحية يا (بورشيا) الجميلة .. »
إذن اسمها (بورشيا) هاهنا .. عادت تسأله محاولة أن تعرف أكثر :
- « هل عطلتك هذه الحملة كثيرًا ؟ »
- « بالطبع .. كنا قد حددنا اليوم لقتل (يوليوس قيصر) .. »
وفهمت (عبير) الأمر .. إن هذه ليست مسرحية (أنطونيو وكليوباترا) بل مسرحية (يوليوس قيصر) .. إن (أنطونيو) اسم يتكرّر فى المسرحيتين .. ولكن لماذا لا يكون (قيصر) هو ممثل نفسه فى هذه المسرحية ؟ إن المسرحية تحمل اسمه على كل حال ..
قال لها (أنطونيو) مفسرًا :
- « المشكلة هى أن دورى هو الأهم والأكثر دسامة

فى المسرحية .. كما أن (قيصر) يُقتل فى وقت مبكر جدًا منها .. ويكون الصراع الأساسى بينى وبين زوجك (بروتوس) .. »

- « فهمت .. »

وبدأت تتذكر خيوط المسرحية إذ يحكيها لها ..

إن المسرحية ترينا (يوليوس قيصر) - القائد الرومانى العظيم - فى أسوأ حالاته .. فهو مزيج من الغرور والتعجرف والجبن ..

أما الشخصية الإيجابية الملأى بالشجاعة والنبل ، فهى شخصية (بروتوس) ربيب (قيصر) .. ونعرف أن (بروتوس) يتآمر مع آخرين لاغتيال (قيصر) لأنه يوشك أن يودى بـ (روما) إلى الدمار .. ولأنه طموح .. وطموحه مهلك سقيم ..

ويتلقى (قيصر) عددًا من الإنذارات المخيفة من أحد العرافين .. خذ الحذر يوم ١٥ مارس .. لكن (قيصر) يؤمن أن (السيف أصدق أنباء من الكتب) ، ويأبى أن يعير أذنه للعراف .

لكن النذر تتوالى : عاصفة تمطر نيرانًا - أسد أمام دار الحكومة - بوم ينعق فى السوق ظهرًا ..

وتتوسل زوجة (قيصر) لزوجها ألا يذهب إلى الديوان فى ذلك اليوم .. لكنه يصمم على الذهاب .. فهو لا يريد الظهور كمن يهاب الخزعبلات ..

ويتوجه إلى الديوان حيث ينتظره المتآمرون - وفيهم (بروتس) و(أنطونيو) - عازمين على تمزيق جسده بخناجرهم ..

سألت (عبير) (أنطونيو) :

- « إذن اليوم هو يوم الذبح عندكم ؟ »

- « طبعًا .. لكننا اضطررنا إلى إرجاء الأمر .. »

- « وهل تنوى المشاركة فى القتل ؟ »

- « لا .. لكنى سأنتظر حتى أجنى الثمار .. »

- « كيف ؟ »

- « هذا سرّى الخاص .. ولسوف تعرفينه فيما بعد .. مع تحرك الأحداث .. لكن دعينا نفرغ من هذه العملية أولاً .. »

وضرب على عنق حصانه ليجدّ السير أسرع ..

★ ★ ★

فى هذه المرة وجدت نفسها جوار (بتروشيو) .. ابتسم لها ابتسامة جانبية وهو يجذب لجام حصانه :

- « مرحبًا يا (كاترين) .. »

هزّت رأسها له فى عصبية .. فقال :
ـ « ما زلت سيئة الطباع كما أنتِ .. »
ـ « أنا ؟ »
ـ « طبعًا .. لهذا تسميك (بادوا) كلها باسم (كاترين النمرة) .. إن (بابتستا) أباك سعيد بما أفعله لترويضك .. »
تذكرت هنا أن (بتروشيو) هو بطل مسرحية (ترويض النمرة) .. وهى (كاترين) الفتاة المدللة سليطة اللسان العصبية .....
لقد صمم (بتروشيو) على أن يظفر بهذه الفتاة الشرسة زوجة له .. تقدّم لخطبتها واحتمل كل شراستها ، حتى إذا ما تحدّد موعد الزواج جاءها وسط المدعوين مرتديًا ثياب شحاذ .. وراح يلعب دوره المجنون حتى أثار هلع الفتاة للمرة الأولى فى حياتها ..
ثم اصطحبها إلى داره الفقيرة ، حيث راح يعاملها أسوأ معاملة .. ويمارس معها سياسة التجويع ..
كان بحاجة لأن يحطم كبرياءها .. كبرياءها السقيم ..
قالت له فى غلّ :
ـ « لقد جعلت منى حمقاء أمام الجميع .. »
ـ « أحقًا يا ملاكى ؟ لا أظن هذا .. فأنت زوجتى الحبيبة الرقيقة ذات اللسان المعسول .. »

وتنهّدت (كاترين) / (عبير) .. على الأقل هذه المسرحية هادئة لا قتلى فيها ولا مآس .. إنها كوميديا خفيفة مثلها مثل (كما تحبها) و(حلم ليلة صيف) .. المسرحيتين اللتين نسيت كل شىء عنهما الآن ..
ثم بدأت شراستها تهدأ قليلاً ..
كان السبب هو أنها بدأت تبتعد عن (بتروشيو) بجوادها ، لتصير إلى جوار الملك (لير) .....

★ ★ ★

بدأت السماء تكفهر ..
ثم إن ألسنة البرق راحت تشق الظلام ، وانهمر المطر مدرارًا من ثقوب السقف الأسود العظيم المسمى سماء ..
راحت الأرض تتحول إلى أوحال .. وتبدّل المشهد الجميل المشرق فى ثوان ، ليغدو جزءًا من لوحة كئيبة عن مملكة الموتى ..
راح كل من الراكبين يضع أغطية على ظهر جواده .. وفوق رأسه .. وشعرت (عبير) بأناملها تتجمّد ..
هتفت (عبير) بصوتها الرفيع والمطر يبلل حاجبيها ، ويسيل على عينيها :
ـ « هل من مأوى ؟ نريد مأوى .. »

تبادلوا النظرات .. لا شىء حولهم سوى سهل فسيح ممتد .. ومن بعيد يبدو حزام من الجبال يلتمع بالبرق من حين لآخر ..

- « إذن .. أسرعوا .. ربما وجدنا مغارة هناك .. »

وشرعوا يجدّون السير .. لكن الأرض كانت زلقة .. والخيول هائجة .. لهذا لم تدهش كثيرًا حين سمعت صهيل جواد .. ونظرت وراءها لتجد (هاملت) فى الوحل ، وحصانه إلى جواره يحاول الارتكاز على قائمتيه الأماميتين لينهض ..

- « توقفوا ! إن الأمير (هاملت) ..... »

هنا رأت فى الظلام خيالات سوداء تشق طريقها نحو الفتى الراقد فى الوحل .. فجذبت لجام حصانها ليتوقف .. وصرخت :

- « (هاملت) ! احترس ! »

لم تكن كلابًا برية ولا ذئابًا .. كانت أطيافًا سوداء فى حجم الإنسان .. ولها مشية تدل على أنه من غير المستحب أن ترى وجوهها ..

وسمعت صرخة (هاملت) وقد رأى ما يدنو منه .. فصرخت بدورها .....

★ ★ ★



هنا رأت فى الظلام خيالات سوداء تشق طريقها نحو الفتى الراقد فى الوحل ..

٨ ـ لا يوجد شىء آمن ..

بدا الأمر كالجحيم .....

فالسيل ينهمر بغزارة جاعلاً الرؤية مستحيلة .. والبرق يضرب أى شىء وكل شىء .. والخيول هائجة كالمحيط .. والرعد يصمّ الآذان .. والوحل يجعل الحركة بطيئة كما فى الكوابيس .. فلا شىء يتم بسهولة ..

ولا يوجد شىء آمن ..

لكنها استطاعت ـ على ضوء البرق ـ أن تدرك أن هذه الأشياء السوداء تحتشد حول (هاملت) .. وأن أحدها يجرّه من ساقيه مبتعدًا عن المكان ..

لكن (ماكبث) صرخ صرخة مرعبة ، ورأته (عبير) ـ ومعه (عطيل) ـ يهرعان ملوحين بسيفيهما ..

ورأت السيوف تطير هنا وهناك ، وسمعت صيحات غير آدمية تنبعث من تلك المخلوقات السوداء وانطلق (أنطونيو) بدوره ملوحًا بسيفه ليلحق بالمشهد ..

وأخيرًا رأت (ماكبث) على ركبتيه يساعد أمير (الدانمارك) الشاب على الجلوس ، ولم تعد ترى تلكم الخيالات المبهمة ..

دنت بجوادها أكثر .. ونظرت من فوق صهوته إلى (هاملت) ، الذى امتلأ وجهه بالقروح والكدمات .. وفى بشرته شحوب الموت ..

أما شعره فقد امتلأ بالأوحال ..

سألته بصوت عال :

ـ « هل رأيت ما هاجمك ؟ »

قال لاهثًا وهو يحاول النهوض على قدميه :

ـ « لا أدرى .. مسوخ ! كل المسوخ تتشابه فى أنه لا يمكن وصفها .. »

ثم نظر إلى (ماكبث) وابتسم :

ـ « أنت شجاع حقًا يا زميل .. »

قال (ماكبث) فى ثقة ، وعيناه الزرقاوان تلتمعان :

ـ « إن (ماكبث) لا يمكن قتله إلا حين تتحرك الأشجار فى الغابة ، وعلى يدى رجل لم تلده أمه .. هل نسيت نبوءة العرافات ؟ معنى هذا ـ عمليًا ـ أننى خالد .. ولا يمكن أن تصف بالشجاعة إنسانًا يعرف أنه لن يموت .. »

تذكَرت (عبير) هذا المقطع من مسرحية (ماكبث) .. وتذكَرت أن (ماكبث) ـ الأحمق ـ قد تصرَف بحرية على أساس هذه النبوءة ..

لكن (شكسبير) لم يدعه ينعم بالخلود المنشود ..

أولاً : جعل أعداءه يزحفون إلى قلعته ، متوارين وراء أشجار الغابة المقطوعة .. وهكذا تحركت الأشجار ..

ثانيًا : جعل عدوه (مكدوف) إنسانًا لم تلده أمه .. بل شقوا بطنها ليخرجوه فيما يشبه الولادة القيصرية .. وهكذا صار له الحق فى أن يقتل (ماكبث) ..

إن (شكسبير) يعرف كيف يخدع أبطاله بالتلاعب بالألفاظ ..

لكن (ماكبث) لا يعلم .. فدعنا لا نفسد عليه حبوره ، وثقته بنفسه ..

وتعاون (عطيل) و(ماكبث) على إعادة (هاملت) إلى سرج جواده ، والجو يزداد سوءًا بشكل غير مسبوق ..

صاح (عطيل) وهو يضع قدمه على الركاب :

ـ « كان حمقًا منهم أن يهاجمونا ونحن مجتمعون .. »

قالت (عبير) بصراخ مماثل :

ـ « هذا حق .. لكنهم أرادوا استغلال العاصفة .. »

قال (ماكبث) بصراخ أعلى :

ـ « إنها لعاصفة جديرة بالملك (لير) .. كان سيستمتع بالكثير من الصراخ والعويل لو كان هنا .. »

ـ « هذا صحيح .. »

هنا هتفت (عبير) فى دهشة :

ـ « ولماذا هو ليس هنا ؟ لقد كان بيننا .. »

هنا تبادل الجميع النظرات .. لم يروا شيوخًا حولهم سوى (بروسبرو) العجوز على صهوة حصانه ، وهو يرمق كل هذا فى رعب .. تحت الأمطار ..

ـ « لقد اختفى (لير) ! »

ـ « يا للهول ! »

وهنا صاح (هاملت) وقد أدرك الأمر برمته :

ـ « كان هذا هو ترتيبهم .. جعلونا جميعًا ننشغل بالهجوم علىّ .. وكان (لير) فى المقدمة .. لهذا حين تراجعنا صار هو فى المؤخرة .. وحيدًا .. وبالتأكيد لم يكن الأمر عسيرًا على الإطلاق .. »

قال (أنطونيو) والسيل ينهمر من خوذته ، وكأنما صنبور صغير هناك :

- « هذا يوضح الأمر .. إنها استراتيجية رومانية قديمة لعزل المقدمة عن باقى الجيش .. لقد رأيت مثلها فى (بومبى) .. »

إن هذا الرجل لا يكف عن إبداء الحكمة بأثر رجعى ..

كلما حدثت كارثة اتضح أنه كان يتوقعها من البداية .. فلماذا لا يمنعها إذن ؟!

نظرت (عبير) إلى السهل الممتدّ أمامها يستحم فى الغيث ، حتى كاد يموت غرقًا .. وخيل إليها أنه يمدّ يده لها طالبًا العون ..

قالت وهى تتأمل وجوههم تلتمع فى البرق :

- « لقد خسرنا (روميو) وخسرنا الملك (لير) فى يومنا الأول .. ماذا ترون ؟ هل نستمرّ ؟ »

- « نكون أو لا نكون .. »

كانت هذه - بالطبع - من (هاملت) .. الذى أردف :

- « إن الخطر قادم فى كل الأحوال .. فلنمت إذن بإرادتنا وشروطنا لا بشروطه هو .. »

وراح يبحث بعينيه فى الأوحال عن سيف ملقى ..

عن دماء .. عن حذاء مخلوع .. لا شىء .. لقد تلاشى الشيخ كأنما لم يكن .....

وفى صمت واصلوا مسيرتهم تحت المطر .....

★ ★ ★

- « إننى مندهش .. من أين يأتى كل هذا الماء ؟ »

قال (ماكبث) فى حيرة :

- « تصوروا أن هناك قومًا فى هذه الأرض يعانون من الجفاف ؟! كيف والسماء بها كل هذه المحيطات ؟ »

- « كما أن هناك أناسًا يموتون من القيظ .. تصوروا هذا ! »

قالها (هاملت) وهو يرخى الغطاء على رأسه أكثر ..

أما (عبير) فهتفت من بين أسنانها :

- « المشكلة أننى مبللة كالإسفنج .. حتى نخاع عظامى صار مشبعًا بالرطوبة .. إننى أتجمّد ! »

ثم التفتت نحو (بروسبرو) قائلةً في غل :

- « وأنت يا والدى .. ألن تفعل شيئًا ؟ أم أن قدرتك السحرية لا تتجاوز بدء العواصف ولا تتضمن إنهاءها ؟ »

مرتجفًا قال (بروسبرو) :

- « للأسف هذا صحيح .. ليست كتب السحر معى .. وإنهاء العواصف يحتاج إلى التلفظ بمقطع سريانى مكون من ثلاثين كلمة .. لا أذكرها .. »

هنا رأوا الضوء ..

ضوء مصباح يلتمع شاحبًا خجلاً فى مكان ما وسط السهل ..

وبشىء من الجهد أدركوا أنه يلتمع فى نافذة كوخ ..

هتفت (عبير) فى حماس :

- « كوخ ! مأوى ! »

ثم بصوت آمر :

- « اتجهوا إلى الكووووخ ! »

قال (بتروشيو) فى مرارة :

- « لو لم تأمرينا بذلك لفعلناه على كل حال .. »

وبعد ثوان كانوا يقفون خارج الكوخ .. ترجل (أنطونيو) عن جواده وراح يشق طريقه وسط الأوحال التى صارت عند ركبتيه .. وراح يقرع الباب بمجمع قبضته .. وهو يتأمل الجذوع التى صُنع منها هذا الملجأ :

- « افتح باسم (السناتو)(*) ! »

لم يردّ أحد .. فعاد يقرع بعنف أكثر :

- « نحن بحاجة إلى المأوى .. »

أضاف أحدهم :

- « والطعام ! »

- « بحق (زيوس) .. هلا فتحت الباب قبل أن ..... »

انفتح الباب ببطء .. ورأى (أنطونيو) عينين مرهقتين تتأملانه على ضوء المصباح الواهن .. ثم سمع صوت امرأة عجوز تقول :

- « تفضلوا يا أبنائى .. إن العاصفة شديدة .. »

ترجل الباقون وقد تفاءلوا خيرًا ..

والخيول المسكينة ؟ لا مشكلة هنالك لأن المرأة أخرجت لهم قطعًا من المشمع ليضعوها على ظهورها ..

مشمع فى عصر (شكسبير) ؟ خطر هذا لـ(عبير) لحظةً ثم تجاهلته لأن الجواب معروف لكل قرائنا ..

وانسلّ الغارقون جميعًا إلى كوخ العجوز ..

(*) مجلس الشيوخ ..

كان ضيقًا .. حتى شعرت (عبير) أنها فى أوتوبيس (٣٠٥) ظهرًا .. الكل يدفع بعضه .. وكوع (ماكبث) يدخل فى معدة (هاملت) .. وركبة (عطيل) الهائلة تكاد أن تمزق ظهرها .. بينما هى تحطم ظهر (ماكبث) ..

لكن المكان كان دافئًا وهذا كاف ..

توجد نار .. ويوجد قدر معلق فوق النار .. يغلى ما به من حساء شهىّ الرائحة .. دائمًا يكون هؤلاء المنقذون قد أعدوا كمية هائلة من الحساء تكفى الجميع .. لماذا ؟ لا أحد يدرى .. لكن القصص تحتم هذا .. ولو لم يكونوا قد جاءوا لالتهمت العجوز كل ما بالقدر وحدها ..

وراحت المرأة توزع الحساء فى آنية من الفخار ، فراحوا يرشفون ويجرعون ويلتهمون ويأكلون ويزدردون ويلوكون ..

كيف لو عرفت المرأة كم دوقًا وإمبراطورًا وملكًا اجتمعوا فى كوخها الحقير الآن ؟

وراحت (عبير) وقد عاد الدم لأطرافها تتأمل العجوز ..

كانت عجوزًا كأى عجوز أخرى .. لا أسنان .. ظهر مقوس .. شعر أشيب يبرز من تحت غطاء رأسها .. وشعيرات بيضاء فى ذقنها ..

ذلك النوع من الشيخوخة الذى يجعل صاحبته أقرب إلى ساحرة شمطاء .. ولا ينقص الأمر سوى بعض أجنحة الوطاويط فى الحساء ..

هل هذا ممكن ؟

ممكن .....

لكن البديل الوحيد هو الخروج للعاصفة .. وعدم احتساء هذا الحساء الساخن شهى المذاق ..

وارتجفت (عبير) حين تذكرت ما كانت تمرّ به منذ عشر دقائق .. لا .. هى لن تجرؤ على تكرار ذلك .. فليكن ما يكون هنا .. فى هذا الكوخ الدافئ ..

وما ذنب العجوز فى كونها تبدو كساحرة شمطاء ؟ إنها كريمة النفس مضيافة .. ويكفيها أنها جازفت باستضافة كتيبة هائلة من الغرباء ، الذين لا يبدو عليهم أى نبل بعد كل ما مرّوا به .. ويكفيها أنها تتحمل كل هؤلاء الذين يأكلون عشاءها .. ويفعمون الجو بأنفاسهم الثقيلة .. ورائحة جواربهم بعد ما مرّ يوم طويل لم يخلعوا فيه أحذيتهم ..

كان (عطيل) بحاجة إلى مزيد من الحساء لإطعام جسده العملاق ..

وراح يردّد :

- « زيدينى .. زيدينى .. »

والحساء يبلل لحيته التى خطها الشيب ..

أما (بروسبرو) فقد بدأت عيناه تنعسان بالفعل من فرط الدفء والشبع .. وبدا أنه يجد صعوبة فى رفع رأسه عموديًا ..

هل يوجد سمّ أو مخدر فى الحساء ؟

لا يمكن التكهن بهذا .. والغالب أنه لا يوجد .. وإلا لمات (عطيل) قبل الجميع بعد ما انتهى من طبقه الخامس :. وتجشأ فى رضا ..

راح (هاملت) يترنم بعبارات الشك الشهيرة ، و(ماكبث) يحلم بأن يغدو ملكًا ، و(بتروشيو) يتوعد (عبير) بسوء المعاملة ..

أما العجوز فجلست فى ركن الكوخ القرفصاء ، وراحت ترمقهم فى رضا .. وبعد قليل غلب النوم الجميع ..

كانت (عبير) هى آخر من أغمض عينيه ..

ولكنها فتحتها بعد قليل لترى شيئًا رهيبًا .....

★ ★ ★

٩ - مـــــأزق جديـــــد ..

كان حافزًا خفيًّا - لعله حاسة النساء السادسة أو السابعة - قد جعلها تفتح عينيها المنهكتين بعد ثوان من الغفوة .. ثوان حلمت أثناءها بالفعل .. ثم فتحت عينيها وقد أراحت رأسها على فخذ (بروسبرو) العجوز لترى ..

لترى فى ضوء اللهب ، ووسط الأجساد النائمة التى تبعث غطيطًا كمحركات طائرات رش المبيدات ؛ ترى العجوز تتحول إلى ذئب !

★ ★ ★

كانت المرأة فى ذات الوضع السابق ، جالسة القرفصاء جوار الجدار الخشبى ..

لكن أنفها راح يستطيل حتى غدا خطم ذئب .. وانتفش الشعر على جانبى رأسها .. واستطالت أذناها .. أما يداها فاكتسيتا بالشعر .. وبعد ثوان تحولت إلى ذئب عملاق - يفوق حجم المرأة بكثير - جالس على قائمتيه الخلفيتين ، ويرمق النائمين فى جشع ..

ولعق شفتيه بلسان خشن .. فتساقط اللعاب من بينهما ..

وغير مصدقة ولا فاهمة ، رأته (عبير) يمدّ رأسه للأمام .. ليطبق على قماش سروال (بتروشيو) ويشرع فى جرّه نحوه ..

تململ الفتى النائم .. ولم يستيقظ ..

إنه مخدّر ! ـ فهمت (عبير) الأمر بصعوبة وهى ترمق المشهد بعينين نصف مغمضتين ـ وأنا كذلك مخدرة وإلا لأطلقت صرخة عاتية .. الفارق الوحيد بينى وبينه هو أننى التهمت نصف طبق الطعام الذى قدمته المرأة لى .. بينما الرجال جميعًا صالوا وجالوا فى أطباقهم ..

ربّاه ! (عطيل) لن يفيق من غيبوبته أبدًا !

ورأت (عبير) على ضوء اللهب المتراقص الذئب العملاق يتشمم جسد الإيطالى النائم .. ثم يفتح فاه ويطبق على ساعده وهو يصدر زمجرة مريعة ..

لا بد من عمل شىء ..

ها هو ذا الخطر الذى فروا منه ينتظرهم ها هنا ..

وكالعادة ينتظرهم فى المكان الوحيد الآمن الذى حسبوه كذلك ..

إن هذا المِسخ ـ الذى يجيد التنكر فى صورة آدمى ـ

لن يجد صعوبة الآن فى افتراسهم واحدًا تلو الآخر ..

إنه واحد من أعداء (شكسبير) .. وجزء من الشىء الذى يؤدى لتآكل المملكة يومًا بعد يوم ..

عليها أن تستجمع إرادتها ..

عليها أن تمدّ يدها إلى .. سيف (ماكبث) الملقى على الأرض بجواره .. ما أعسر ذلك ! ها هو ذا .. أطبقت أناملها عليه على صوت القضم والمضغ المحطم للأعصاب ..

لو عاش (بتروشيو) فمن المؤكد أنه سيعيش أكتع ..

عليها أن ترفع السيف .. لكن ما أثقله ! كل ما استطاعت عمله هو أن زحزحت نصله قليلاً ليغوص وسط النيران المشتعلة ..

فلنحاول ثانية !

ولكن .. صبرًا .. إن نصل السيف يلتهب بالنيران .. يتأجج .. يحمرّ لونه أكثر فأكثر .. لحسن الحظ أن مقبضه عازل للحرارة ..

إذن كل ما عليها هو أن ترفعه هكذا .. وهوب ! تهوى به هكذا .. على ردفى الذئب الذى كان على بعد قليل منها ..

وشمّت رائحة شعر يحترق ..



ثم تذكرت ذراع (بتروشيو) .. زحفت إلى مكانه ، وتأملته فى فضول ..

لكن ما شمته أكثر كان هو العواء .. نعم .. شمت العواء ..

عواء له صوت الحريق ورائحة الحريق .. عواء لم ولن تسمعه السهول بعد هذه المرة ..

وفى الثانية التالية رأت الذئب يزيح باب الكوخ بخطمه ومخالبه .. ثم ينطلق إلى الليل المظلم بالخارج لا يلوى على شىء وصرخاته تثقب سمعيها ..

لقد فعلتها .. فعلت .... ها !!!

ونامت من جديد بضع دقائق ..

وحين فتحت عينيها ؛ أدركت أن رذاذ المطر يدخل الكوخ ، والريح تسبقه ، وأن الباب ينفتح وينغلق فى جنون ، وأن النار مهددة بأن تنطفئ ..

لهذا تحاملت على نفسها حتى زحفت إلى الباب .. واستخدمت سيف (ماكبث) بعد ما غرسته فى الأرض وراء الباب ، كمزلاج يمنعه من الانفتاح ..

ثم تذكرت ذراع (بتروشيو) ..

زحفت إلى مكانه ، وتأملته فى فضول ..

كان الذراع ممزقًا متهتكًا غارقًا فى بركة من الدماء ..

هذا متوقع ..

المشكلة هى أن (بتروشيو) نفسه لم يكن متصلاً

بذراعه .. بل لم يكن فى الكوخ أصلاً ! متى حدث هذا ؟

لا بد أن شيئًا ما دخل الكوخ فى الدقائق التى غفت فيها ، وأخذ (بتروشيو) معه .. لأين ؟ لا أحد يعرف .. للمكان الذى ذهب إليه كل المختفين السابقين : (روميو) و (لير) ..

وأسندت رأسها للباب ، وواصلت نومها العميق ..

★ ★ ★

فى الصباح شعرت بيد عنيفة تهزّها مرارًا ..

ـ « استيقظى ! يا لكسلك الشديد ! »

فتحت عينيها فوجدت (عطيل) يرمقها فى ضيق .. وعيناه الصفراوان تلتمعان وسط وجهه الأبنوسى ..

وسمعت (هاملت) يقول وهو يتثاءب :

ـ « أرجو ألا تخبرها بفقد (بتروشيو) .. فهذا سيسبب توترها ! »

قال (ماكبث) :

ـ « بل هى تعلم .. فها هى ذى نائمة جوار الباب ، ويبدو أنها استعملت سيفى فى تثبيت الباب .. ولكن أين العجوز ؟ »

نهضت (عبير) وتمطّت .. ثم سألت :

ـ « هل توقفت العاصفة ؟ »

ـ « نعم .. ماذا تعرفين عما حدث ؟ »

ـ « كل شىء .. »

وحكت لهم تفاصيل الليلة الرهيبة .. الذئب .. والذراع .. إلخ ..

قال (أنطونيو) وهو يذرع الكوخ جيئة وذهابًا :

ـ « اللعنة ! إن (شكسبير) سيخرب بيوتنا .. »

ـ « يجب أن يجدنا أحياء ليفعل ذلك .. من الواضح أن أحدنا لن يعود من هذه الرحلة .. »

جلست (عبير) جوار (هاملت) .. وقالت :

ـ « ما يضايقنى هو أننى لن أعرف أبدًا ما كان (بتروشيو) سيفعله فى باقى المسرحية .. لقد نسيت قصتها تمامًا .. »

قال (هاملت) بابتسامة مريرة :

ـ « جميل أنك مرهفة الحسّ إلى هذه الدرجة .. على كل حال لم يكن الكثير سيحدث .. كان سيواصل تحطيم كبريائك حتى تصيرى أكثر الزوجات طاعة فى (بادوا) .. »

ـ « هكذا فقط ؟ إن قصتها لا تختلف عن فيلم (آه من حواء) إذن .. »

ـ « ومن قال العكس ؟ »

سألته وهى تتأمل الرجال يدفنون ذراع (بتروشيو) فى أرضية الكوخ ، وهم يرددون بعض الصلوات :

ـ « وماذا عن الملك (لير) ؟ ما هى بقية القصة ؟ »

قال لها وهو يمسح وجهه :

ـ « إنها مأساة حقيقية .. ربما هى من أقسى مآسى (شكسبير) حيث تنهزم البراءة والطهارة والصراحة هزيمة مدوية .. ولحسن الحظ أن هذه المسرحية الدامية قد تلاشت من عقلك .. »

ـ « لكنى أريد أن أعرف .. »

ـ « حسن .. متى توقفت القصة بالنسبة لك ؟ »

ـ « عندما ذهبت (كورديليا) لتطلب من زوجها ـ ملك فرنسا ـ أن يخرج جيشًا لقتال أختيها اللعينتين .. »

قال (هاملت) غير ناس أن يلتهم قطعة من القديد كطعام إفطار :

ـ « هم م م .. توجهت (كورديليا) مع جيشها الفرنسى إلى (دوفر) .. وذهبت لترى أباها .. فكان ما أثار حزنها ولوعتها أن الأب لم يتعرفها .. لقد أودى الخبال والمعاملة القاسية بعقله ..

لشد ما كانت لحظات أليمة من البكاء والعويل المتبادل !

لكن الشريرتين سمعتا بقدوم أختهما .. واستعد زوجاهما بجيش إنجليزى قوى ..

وتم الصدام بين الجيشين .. صدام ليس من صالح الفرنسيين .. وسرعان ما تم أسر (كورديليا) الطيبة وأبيها ..

وماتت (كورديليا) فى السجن .. قتلوها .. وراح العجوز يبكى جوار جثتها .. يا لها من مأساة !

لكن الأفاعى ماتت بسموم العقارب .. فقد دبَّ الخلاف بين الأختين الشريرتين .. ودست (جونريل) السمَّ لأختها (ريجان) ..

ثم إن زوج (جونريل) عرف أنها تخونه مع إيرل (جلوسستر) .. ورمى بها فى السجن حيث قتلت نفسها ! »

ـ « يا للهول ! إن (شكسبير) قد عامل هذه الأسرة أسوأ معاملة .. »

ـ « حقًا .. لكن المأساة تنتهى نهاية سعيدة بأن يحكم دوق (ألبانى) (بريطانيا) .. ويستعين بمستشاره إيرل (كنت) .. ويعم العدل والسلام الربوع .. »

ـ « بعد هذه المذبحة ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « ليست قصة عبقرية جدًا .. »

ابتسم ، ومسح أنامله فى خرقة قماشية .. وقال :

- « ليس المهم بالنسبة لقصص (شكسبير) ماذا يحدث ؟ المهم هو كيف يحدث ؟ أكثرها قصص تقليدية مطروقة .. لكنه يثريها إثراء شديدًا بحواره الفخم ، وحِكَمِه العميقة ، وفهمه للنفس البشرية .. إن تلخيص أية قصة لـ (شكسبير) يعنى تدميرها تدميرًا .. »

ثم قال وهو ينهض :

- « هلمى .. يجب أن تأمرينا بالتحرك .. »

هكذا أمرها بإصدار الأوامر ! ولم تجد شيئًا آخر تفعله سوى أن تطالب الجالسين بالتحرك .. فقد حان الوقت ..

اتجه (عطيل) للباب الخشبى وحاول فتحه ..

استغرق لحظة أطول من اللازم .. ثم غمغم فى عدم فهم :

- « إنه موصد ! »

هرعت (عبير) غير فاهمة لتقف جواره تتحسس الباب :

- « كيف ؟ لقد كان مفتوحًا والعاصفة تقتحمه .. حتى اضطررت إلى أن أسدّه بسيف (ماكبث) .. »

- « لكنه موصد .. »

وقطب جبينه الأسود مفكرًا :

- « هناك من وضع شيئًا وراءه .. صخرة مثلاً .. »

- « ولكن لماذا ؟ »

- « لأنه يدبر لنا مصيبة بالتأكيد .. »

وراح يدفع الباب بعضلاته القوية حتى نفرت أوردته ، دون جدوى ..

القرط فى أذنه يهتزّ باستمرار .. وعصبيته تزداد ..

قال (هاملت) مرتجفًا :

- « سيحرقون الكوخ حتمًا ! »

قالت (عبير) وهى تنظر لأعلى :

- « لا أظن .. إن خيالى أكثر خصوبة من هذا .. والنار أسلوب تقليدى مملّ .. »

- « إذن ما هو الأسلوب الذى تفكرين فيه ؟ »

- « هذا الأسلوب مثلاً ؟ »

قالتها وهى تشير إلى فتحة المدخنة ..

فمن الفتحة انساب ما بدا لهم للحظة ككابوس أسود عملاق ..

ثم أدركوا - وسط هلعهم - أن هذا جيش من الوطاويط ..

* * *

١٠ - إننــــا نقتـــــــرب ..

- « وا روحَ أبى ! إنهم يهاجمون ! »
- « وحق (زيوس) .. يا لشراستهم ! »
- « اضرب يا (هاملت) .. واللعنة على من يصرخ أولاً : كفى ! »
- « مام ماميا ! »

شرع كل منهم يصرخ ، ويستغيث على طريقته الخاصة .. وهو يطوح بذراعيه يمينًا ويسارًا محاولاً إبعاد هذه المخلوقات الشنيعة ..

لم تكن وطاويط .. فهى تبصر جيدًا .. والوطاويط ضريرة ..

لم تكن وطاويط .. فحجمها أكبر وطباعها أشرس ..

لم تكن وطاويط .. فسلوكها الجماعى مربك .. وتتحرك فى جماعة متزاحمة كأنها جسم واحد أسود غليظ ..

شرعت تعض الآذان ، وتغرس مخالبها فى العيون ، وتلوك الشفاه ..

بينما الكل يصرخ هلعًا وألمًا ..

والأسوأ أن (عطيل) - القوة الغاشمة - راح يطوح بسيفه وذراعه ذات اليمين وذات اليسار .. والويل لمن يقف فى طريقه من زملائه البائسين ..

تمرّغت (عبير) على الأرض ، وغطت رأسها بساعديها ..

كيف يمكن الفرار من هذه المصيدة ؟

لم تدر متى انفتح باب الكوخ ، ولا متى خرج سرب الرعب من فتحته .. لكنه هذه المرة لم يخرج وحيدًا ..

كان يحمل بين مخالبه جسدى (عطيل) و(بروسبرو) .. برغم صراخهما ومحاولتهما الفرار ..

وكان كل مشغولاً بنفسه .. فلم يجرؤ أحد على التصدى ..

★ ★ ★

وحين هدأت المعمعة ..

وحين استلقى الأبطال على الأرض يلهثون ، ويبحث كل منهم فى جسده عن بعض الأطراف السليمة التى يمكن النهوض عليها ..

وحين أدركت (عبير) أن هذا الذى يسيل من

جبهتها ليس عصير طماطم ، بل دم .. دم حارّ مالح المذاق ..

عندها أدركوا أنهم خسروا المعركة .. وربما الحرب ..

ـ « لا جدوى ! »

قالها (هاملت) وهو يبصق دمًا .. وأردف :

ـ « إننا نواجه عدوًا أقوى منا بكثير .. عدوًا له قوة الطبيعة وشراسة الأعاصير ومضىّ الشهب .. عدوًا لا شكل له ولا مكان .. »

ـ « اخرس ! »

هذه كانت من (ماكبث) الذى تحامل على نصل سيفه لينهض .. وقال :

ـ « كفى تبديدًا للمعنويات .. »

ـ « معنويات ؟ سمعت عنها لكنى لا أعرف ما هى .. »

نظرت (عبير) حولها فلم تر سوى (هاملت) و(ماكبث) و(أنطونيو) .. لم تبق سوى ثلاث مسرحيات لـ (شكسبير) فى هذه المملكة ..

هل هذا عدد كاف ؟ لقد فقدوا (عطيل) الثور الآدمى الذى كان قادرًا على انتزاع جبل من مكانه ..

وفقدوا (بروسبرو) الذى كان يملك السحر .. وهو سلاح ماض فى مملكة السحر هذه ..

فهل توجد فرصة للمقاومة حقًا ؟ هل يوجد أمل ؟

قالت من بين أسنانها الدامية :

ـ « من هؤلاء ؟ ماذا يريدون منا ؟ »

ثم عادت إلى طبيعتها الطفولية .. وغمغمت :

ـ « لا أريد الاستمرار فى هذه القصة اللعينة .. أريد قصة أخرى .. »

قال (ماكبث) فى سخرية :

ـ « لا حل أمامك سوى الاستمرار .. وحتى يأتى (المرشد) ليصطحبك .. إلا إذا أردت البقاء هنا للأبد .. »

نظرت حولها .. ووجدت أن كلامه ليس خاليًا من المنطق إلى هذا الحدّ .. فهزّت رأسها .. وتحاملت على نفسها لتنهض شاعرة أنها كومة من البلى بعثرها صبى ..

قالت وهى تلملم أشلاء ثوبها :

ـ « ناولنى عباءتك يا (هاملت) .. »

ـ « لِمَ ؟ لابد لـ(هاملت) من عباءة مبطنة يطوحها

يمينًا ويسارًا على المسرح ، بينما هو غارق فى حيرته السرمدية .. »

صاحت فى عصبية :

- « فليكن عندك بعض الذوق ! ألا ترى حال ثيابى ؟! »

بدا عليه الحرج من حماقته .. فخلع عباءته ووضعها على كتفيها .. مغمغمًا بكلمات غير مفهومة ..

وضمت (عبير) العباءة على صدرها ، مبتسمة لرؤية (هاملت) هكذا دون عباءته .. كأنه دجاجة تم انتزاع ريشها ..

ثم إنها نظرت للباب المفتوح .. وهمست :

- « ماذا تنتظرون ؟ هيا بنا .. »

★ ★ ★

بالطبع لم تكن الخيول موجودة ..

فرَت فى العاصفة ، لأنها خيول ذكية تعرف ما ينبغى عمله ..

كان الوحل فى كل مكان .. لكنَّ الأمطار توقفت .. وبدأت الشمس تسطع على حياء ، محاولة فى جهد أن تجعل الأرض أرضًا من جديد ..

وتمضى المسيرة البائسة ..

كان (هاملت) قريبًا من نفسها إلى حدَ ما ..

صحيح أنه غامض .. معقد .. كثير الشرود .. لكنه كان لطيف المعشر إلى حدَ ما .. لا يخلو من الدعابة .. و (جنتلمانًا) حقيقيًا ..

إن (ماكبث) عصَبى مغرور .. ثم إنه قاتل .. لن تنسى هذا ..

و (أنطونيو) شبيه بطاووس آدمى غير ودود على الإطلاق ..

لهذا مشت جوار أمير (الدانمارك) المتردَد .. وسألته :

- « هل لى أن أعرف كيف كانَ (عطيل) سينهى مسرحيته ؟ »

- « كان سيقتلك طبعًا .. »

- « وأنا بريئة ؟ »

- « هذا يحدث كل يوم .. إن مسرحية (عطيل) تحكى عن الشك وخيانة الصديق الحسود .. لقد أحبك (ياجو) وحسد (عطيل) على امتلاكه إياك .. لهذا دقَ هذا (الإسفين) بينكما .. »

صمتت بعض الوقت مفكرة .. ثم سألته :

ـ « وماذا عن مسرحية (بروسبرو) ؟ »

ـ « تعنين (العاصفة) ؟ إنها مسرحية باسمة حقًا .. كان (بروسبرو) البائس يسعى إلى العثور على عريس لك .. ووقع اختياره على ابن أخيه .. لهذا أثار تلك العاصفة التى تسببت فى غرق مركب أخيه جوار الجزيرة .. وبهذا يرتب لك أن تلتقى بالشاب ويقع كل منكما فى غرام الآخر ..

ثم يصل الأخ الخائن (أنطونيو) إلى الجزيرة ، مبتلا منهكًا ..

ويتعرف أخاه .. فيجزع .. لكن (بروسبرو) يطيب خاطره ، ويسامحه على خطاياه .. وتعم السعادة الجميع .. »

ـ « هذا غريب ! لا قتلى ولا صرعى ؟ »

ـ « كان (شكسبير) متعكر المزاج حين كتبها على ما يبدو .. »

ثم تصلب وهو ينظر إلى الأفق .. وهتف :

ـ « لحظة .. هل ترين هذا ؟ »

وتوقف الحشد ورفعوا عيونهم إلى أعلى حيث أشار (هاملت) ..

ـ « هذا هو ..... »

ـ « بالتأكيد .. »

فهناك ـ على بعد كيلو متر أو اثنين ـ رأوا القصر .. القصر الشامخ الذى يشق عنان السماء ، خنجر بتار يمزق السحب وثمة برج عال يبدو كأنه يجتذب ألسنة البرق إليه .. وغابة تحيط بقاعدته ..

همست (عبير) وهى تبلل بلسانها شفتيها :

ـ « هل هذا القصر من عوالم (شكسبير) ؟ هل رآه أحدكم من قبل ؟ »

ـ « لا ..... »

قالها (ماكبث) وهو يتحسس مقبض سيفه ..

ـ « بالتأكيد لا .. »

★ ★ ★

ـ « أعوذ بالله ! »

قالتها (عبير) وأردفت :

ـ « يبدو كقلعة (فرانكنشتاين) .. أو كقلاع الساحرات فى القصص .. »

قال (أنطونيو) وهو يشمخ برأسه :

ـ « لا أعرف هذا الدكتور (فرانكتايوس) .. لكنى أفهم ما تعنين .. »

ثم أردف .. وقد عاد إلى طبيعة المحارب :

ـ « إن هذه المرتفعات تعزلنا عن القصر .. يجب أن نحاول اجتيازها قبل أن يجنَ الليل .. سنمزق الأوغاد سريعًا ثم نعود لمواصلة أعمالنا .. إن (ماكبث) متلهف على قتل (بانكو) .. و(هاملت) يريد إثبات الجرم على عمه .. وأنا فى أمس حاجة للتواجد لحظة اغتيال (قيصر) .. »

تنهّد (هاملت) فى يأس :

ـ « أعتقد أننا لن نعيش لنرى هذه الأحداث .. لكننا على الأقل نحاول .. نحاول .. »

(ماكبث) قال فى ثقة وهو يشير إلى صدره بإبهامه :

ـ « أنا لن أموت .. هذا مفروغ منه .. »

ـ « وحتى تتحرّك أشجار الغابة .. سئمنا هذه النبوءة .. »

قالت (عبير) وهى تشير إلى قاعدة القصر :

ـ « بمناسبة هذه الأشجار .. هناك .. هل ترونها ؟ »

ضيق (ماكبث) عينيه ، وسألها بنفس الثقة :

ـ « ماذا بها ؟ »

ـ « إنها تتحرّك ! »

★ ★ ★

بدءوا فى تسلق الصخور الوعرة التى تشكل حزامًا حول القصر ..

كان مجهودًا مضنيًا ممزقًا للأكف والأقدام .. فالصخور لم تكن ترتفع إلى أعلى باستمرار .. ولم تكن تهبط لأسفل بانتظام .. بل هى أقرب إلى حفنة من الخناجر مغروسة فى الأرض ونصالها لأعلى ..

كان (ماكبث) فى حالة نفسية غاية فى السوء ، يولول كالثكالى وقد أدرك أن نهايته دانية حتمًا ..

وقالت له (عبير) مواسية :

ـ « لا تقلق .. إن خداع النظر يحدث للجميع .. »

ـ « لم يكن خداع نظر .. كلنا رأيناه .. كانت رسالة موجهة لى بوضوح تام .. نوعًا من التلويح بالسبابة للتوعد .. »

واستطرد قائلاً :

ـ « إننى ميت .. فلتغفر لى السماء خطاياى .. لقد كنت أنت السبب فى كل هذا .. لقد جعلت فكرة الملك طموحًا دائمًا مسيطرًا على كل جوارحى .. وكنت على استعداد لعمل كل شىء .. لقد أحببتك حقًا ولم أكن أبغى أن ترينى فى ثوب الفاشل الضعيف .. »

ـ « كل هذا من أجل أشجار تتحرّك ؟ »

- « بل من أجل نبوءة تتحقق .. »

أخيرًا فرغوا من اجتياز حزام الصخور ..

لكنهم لم يفرغوا من الوصول إلى القصر ..

كان هناك حزام رهيب من المستنقعات يمتد إلى حيث لا ترى العيون ، وشعرت (عبير) بغصة فى حلقها وهى تتأمل هذا المشهد ..

- « هذا ما كان ينقصنا .. » - قال (هاملت) فى قنوط - « هذه المستنقعات اللعينة صالحة تمامًا لابتلاع اثنين أو ثلاثة منا .. »

- « أرى أن نعود لـ (شكسبير) .. »

قالها (ماكبث) فى وجوم ، وهو ينظر للأرض ..

- « إن العودة ستكون أخطر من التقدم .. »

فى تصميم قال (أنطونيو) :

- « لا عودة .. سندور حول هذه المستنقعات .. ولا بد من شريط من الأرض الثابتة يمكننا اجتيازه .. »

وراحوا يدورون حول الموضع الرهيب ..

كان هذا خطرًا .. فالأرض زلقة تمامًا .. والظلام قد بدأ يحلّ ..

ومن بعيد سمعوا عواء ذئاب ..

★ ★ ★

كان الليل قد كسب المعركة ، حين وقفوا على حافة الهاوية يرمقون القصر الواقف مسربلاً فى الظلام ..

وقد بدأت بعض الأنوار المبهمة تلتمع من خلال نوافذه ..

ثمة من يعيش هناك .. أم الأصح لغويًا أن نقول (ثمة ما يعيش هناك) ؟ لا يهمّ ..

بدا القصر كوحش غاف ينتظر من يوقظه ..

الظلام دامس .. لكنهم يرون الهاوية تحت أقدامهم .. هاوية لا آخر لها ولا قرار .. كأنها فم الوحش الغافى ذاته ..

لا شعوريًا مدت (عبير) يديها تمسك بمعصمى كل من (هاملت) و(أنطونيو) .. وتقلصت أناملها هناك ..

إن (ماكبث) ..... ولكن ..... أين (ماكبث) ؟

إنها لم تره منذ بدءوا الدوران حول المستنقعات ..

التمع السؤال فى عينيها ، وفهمه (هاملت) فقال بتؤدة :

- « لا تنظرى للوراء .. لقد فقدنا (ماكبث) فى المستنقعات منذ ساعة .. لم يكن ممكنًا عمل شىء .. »

- « بهذه البساطة ؟ »

- « كان سيفعل نفس الشىء لو كنت مكانه .. ثم إنه قد تهيأ للموت كما لم يتهيأ أحد .. لقد رأى

الأشجار تتحرك فكأنه رأى ملاك الموت .. »

قال (أنطونيو) وهو ينظر إلى قدميه :

- « كيف نعبر هذه الهاوية ؟ »

وكأنه كابوس ؛ أشار (هاملت) إلى الجواب ..

كان هناك جذع شجرة موضوعًا على حافتى الهاوية ، كأنه جسر .. جسر طويل جدًّا .. من أين جاءوا بشجرة بهذا الطول ؟ شجرة طولها لا يقل عن عشرين مترًا ..

هتفت بلهجة تقريرية نهائية :

- « هذا لن يكون .. لن أعبر هذه ! »

- « ولكن يا (أوفيليا) .. »

- « لن يكون .. إن الدوار يصيبنى على سطح دارنا .. فما بالك بـ ...؟ »

- « يمكنك أن تغمضى عينيك ! »

- « قلت لا ! أأعبر هذه الهاوية مغمضة العينين ؟! »

لكن الجواب كان سريعًا جدًّا ، وكان مقنعًا ..

إذ رأوا جمرات متقدة تبرز من الظلام خلفهم لتحيط بهم .. جمرات حمراء موزعة على شكل أزواج متقاربة .. وسمعوا ذلك الصوت المميز ..

وووووووووه !



كان الليل قد كسب المعركة ، حين وقفوا على حافة الهاوية يرمقون القصر الواقف مسربلاً فى الظلام ..

- « ذئاب ! »
- « لقد تقرر الأمر .. »
- « إن التراجع مستحيل .. »
- « معنى هذا أن صاحب الذئاب يريد منا أن ندخل القصر .. »
- « ولكن .. الظلام ..... »

وووووووووه !

كان هذا أكثر إقناعًا ..

وعلى الفور وضعت (عبير) قدمها على جذع الشجرة .. لم يكن الأمر سيئًا إلى هذا الحدّ .. وسرعان ما وضعت القدم الأخرى ..

وبحذر بدأت المشى فوقه ، محاذرة من السقوط فى الهاوية .. متهيبة من النظر لها .. حبست أنفاسها وراحت تتقدم ..

ووراءها سمعت خطوات (هاملت) .. ثم خطوات (أنطونيو) الثقيلة ..

رفعت ذراعيها بمحاذاة جسدها ، وواصلت السير ..

- « إن الذئاب تتقدّم ! »

قالها (هاملت) وهو ينظر إلى الوراء ..

إذ رأى جمرتين حمراوين تتقدمان فوق جذع الشجرة

باتجاه (أنطونيو) .. لكن الذئب حافظ على المسافة .. ولم يحاول أن يدنو أكثر ..

وتواصل (عبير) تقدمها الحذر ..

لقد اجتازت ثلث المسافة الآن ، وهى ذى ترى القصر المخيف كأوضح ما يمكن .. لقد صارت فى أحضانه حقًا ..

تواصل المزيد من التحرّك ..

صوت صرخة .. صرخة عالية مذعورة ، تتلاشى تدريجيًا لتذوب فى الأبدية .. وتمتزج بالصدى ..

- « ما هذا ؟ »

قال (هاملت) :

- « لا تنظرى للوراء .. إنه (أنطونيو) ! لقد هاجمه الذئب ووثب إلى الهاوية معه !! »

يا للكابوس المريع ! المشكلة أنها لا تستطيع أن تتحرّك بشكل أسرع .. وهى تعرف أن ذئبًا آخر يخطو فوق الجسر الآن ..

- « (هاملت) .. إنه سيهاجمك ! »
- « ليس بعد .. استمرى فى الحركة .. استمرى ... »

واصلت التقدم ، وقلبها يخفق كالطبل ..

سمعت صوت زئير .. فنظرت للوراء ..

وكان ما رأته متوقعًا .. الأمير (هاملت) يحاول التماسك ، بينما ذئب يقف على قدميه الخلفيتين منشبًا أنيابه فى صدره ..

كان الذئب عملاقًا يفوقه فى الطول ..

أحست بالهلع .. وبعجز مريع ..

إن الجسر لا يتسع للعودة للوراء .. ولا يتسع سوى لواحد فقط .. أى أنها لا تستطيع التراجع .. يمكنها أن تقفز لأسفل .. ولكن لأية غاية ؟

هو ذا (هاملت) يطلق صرخاته الحرَى ..

يحاول التشبث بمكانه ..

لكن الذئب كان شرسًا .. وكان انتحاريًا .. كأنه ياباني من (الكاميكاز) الذين كانوا يركبون على الطوربيد ، ويقتحمون به السفن الأمريكية فى الحرب العالمية ..

وسرعان ما هوى الاثنان إلى أسفل ليبتلعهما الظلام ..

وخطر لـ (عبير) لحظتها خاطر واحد سخيف ..

إن (هاملت) لم يصرخ عندما هوى لأسفل ..

★ ★ ★

١١ ـ الواقع .. ومن معه ..

نظرت للوراء فلم تجد المزيد من الجمرات المتقدة .. إن الذئاب لن تتولى أمرها بدورها ..

كان عليها أن تقطع الربع الباقى من جذع الشجرة ، فى الظلام وبساقين صنعتا من (السباجيتى) ..

لكنها فعلتها .. دامعة العينين .. مفككة الأوصال ..

أخيرًا استقرت قدماها على الناحية الأخرى للهاوية ، وللمرة الأولى تقف تحت جدران القصر ترنو لأعلى ..

إنه أضخم وأرهب مما تصورت ..

سارت بمحاذاة الجدار .. الجدار المصنوع من قطع هائلة من الحجارة ، كما تقضى تقاليد القرون الوسطى العتيدة ..

كانت هناك بوابة معلق عليها مشعل ..

وجوار البوابة كان ينتظرها حارس من نوع فريد ..

لم يكن آدميًا بالتأكيد .. فله ذيل .. وله شعر منتفش على جانبى الرأس .. وله عينان متقدتان .. وله زئير مرعب .. ويمشى على أربع ..

يمكن القول ـ دون خطأ كبير ـ إن هذا ذئب ..

تراجعت إلى الوراء خطوة ..

لكن ثبات الوحش ونظرته الثابتة لها جعلاها تعرف أنه ينتظرها .. ويريد أن يقودها إلى الداخل ..

دنت منه بحذر .. بحذر ..

فرأته يبعد عنها مشعليه الأحمرين ، ويتجه بخطمه إلى الداخل حيث تنبعث رائحة العطن والعفن ..

ثم سبقها ببضع خطوات ..

بصعوبة نقلت قدميها لتلحق به ..

لن يكون بالداخل ما هو أسوأ على كل حال ..

★ ★ ★

هذا الممر الطويل المقبض ..

الممر الذى تراه فى كل أفلام الرعب ، حتى حسبت أنها لقطة واحدة يستنسخها الجميع ..

مشاعل على الجانبين .. ومضيفها ذو الفراء يتقدمها فى تؤدة وثقة .. وهى تتبعه فى بلاهة وتوجس ..

تثق فى ذئب ! غريب هذا حقًا .. إن المرأة قد تعجب بذئب وقد تميل إليه .. لكنها لا تمنحه ثقتها أبدًا ..

أما هنا فـ (عبير) لا تملك ترف الاختيار ..

وبصوت حلقى ممرور غمغمت :

ـ « أيها (المرشد) ! تعال وخلصنى من هذه القصة .. لا أريد الاستمرار .. عليك اللعنة .. »

لكن قواعد اللعنة معروفة ..

إنها لا تنتهى إلا حين تنتهى .. وليس مسموحًا لها بالتململ قبل ذلك ..

وجدت درجات سلم حجرية .. ووجدت الذئب قد وقف متصلبًا .. كأنه يقول لها : اغفرى لى .. لا أملك سلطة الاستمرار بعد هذا ..

ـ « حسن .. أنت ذئب لطيف .. »

توهجت عيناه الشرستان ، ولم يردّ .....

راحت ترقى الدرجات وهى تلهث انفعالاً ورعبًا ..

وكان هناك مدخل كبير .. يقود إلى قاعة كبيرة بدورها ..

★ ★ ★

كان هناك حشد من الناس يرمقونها فى فضول .. كلهم جالس إلى مائدة عملاقة فى وسط المكان ..

وكانت هناك مشاعل فى كل مكان .. ورماح يمسك

بها حراس أشداء مفتولو العضلات كسيّافى ألف ليلة وليلة ..

أدركت أن عليها أن تمشى إلى وسط المكان ..

كان هناك مقعد .. فجذبته ـ كأنما فى حلم ـ وجلست عليه ..

سمعت صوت ضحكة مجلجلة تدوى فى المكان ..

ثم رأت رجلاً ضخم الجثة ـ هو صاحب الضحكة ـ يجلس فى صدر القاعة ، كأنه ملك يطلّ على بلاطه ..

ـ « هاهاها ! أنت تتصرفين كأنك تعرفين ما أنت بصدده يا آنسة ! »

لم تردّ .. كانت جائعة .. وكانت مرهقة .. وفى يقينها كانت تعلم أن لقمتين من الطعام وضجعة طويلة هى كل ما يهمها فى الحياة الآن .. وبعدها ليكن ما يكون ..

هل سيقتلونها ؟ لقد مات من هم خير منها ..

هل سيعذبونها ؟ من الصعب أن يوجد عذاب يفوق عذابها ؛ فوق جذع الشجرة تشعر بأنفاس الذئاب من ورائها ..

وكأنما كانوا يفهمون ، وجدت أمامها دجاجة محمرة ،

ورغيفًا من الخبز ، وتفاحة .. ومدية لتأكل بها .. فهم لا يعرفون الشوك ولا الملاعق ..

راحت تأكل غير مبالية بهذا الحشد الذى يرمقها ، ولم ترفع عينيها نحو صاحب الضحكة الخبيثة ثانية ..

وحين انتهت رأت عبدًا يحمل دورقًا به بعض الماء .. فغسلت يديها .. ثم رفعت عينيها الحمراوين إلى صاحب الصوت ..

كان ضخمًا مهيبًا .. له عينان لامعتان .. وكان الشعر فى وجهه أكثر من اللازم مما ذكرها بوجوه المذءومين ..

وحين رفع يده أدركت أن أظفاره أطول من اللازم .. أقرب إلى المخالب .. وأن جلد يديه أسود .. أسود كيوم بلا أمل ..

وإلى جواره رأت شابًا .. شابًا يرتدى ثيابًا مزركشة الألوان ، منفرة الذوق .. كان يلوك قطعة من اللادن ، ووجهه غير حليق ، وله كرش لا بأس بحجمه يتدلى فى استرخاء أمامه ..

وفى قدميه الغليظتين رأت شبشبًا مبتذل المنظر تطل منه أظفار مشوّهة .. الحق أنه كان أكثر من رأت فى حياتها إثارة للاشمئزاز ..

على جانب الجالس الآخر كانت هناك فتاة .. فتاة ملطخة بالأصباغ ترتدى ثوبًا ضيقًا .. وقد وضعت سماعتى جهاز (ووكمان) على أذنيها ، وراحت تهتزّ مع الإيقاع ..

رفعت رأسها لأعلى فرأت ـ لدهشتها ـ شاشة تلفزيون كبيرة ، تعرض مشاهد متتابعة من مواقف عاطفية .. وكانت الشاشة معلقة فوق الرءوس بحيث لا يفلت منها أحد ..

أين هى ؟

ما هذا المكان ؟ ومن هؤلاء القوم ؟

قال الجالس على العرش بصوت مجلجل واثق من نفسه :

ـ « اسمحوا لى أن أقدم لكم ملهمة هذا العالم .. ومالكة هذه الأرض .. الآنسة (عبير) صاحبة الخيال الخصب الذى لا يكف عن التوالد .. كأرنبة برية يستحيل منعها من أى شىء .. »

هتفت (عبير) فى هستيريا :

ـ « ومن أنت ؟ من أنتم ؟ »

قال بذات اللهجة الواقعية :

ـ « لنكن واقعيين .. أنت فى قبضتنا وليس من حقك إلقاء الأسئلة .. »

فى رقاعة قالت الفتاة ، وهى تتمايل على النغم :

ـ « إنها بلهاء .. تحسب أن الأسئلة لا بد أن تحظى بإجابات .. »

وقال الفتى ماضغ اللادن :

ـ « وهى قبيحة كذلك .. و (مخها لاسع) .. »

عادت (عبير) تكرّر فى حنق هذه المرة :

ـ « يبدو أن بالكم رائق ها هنا .. »

قال الفتى فى رضا :

ـ « إنها مسألة (دماغ) كما ترين .. »

وتوقف ليرمق الشاشة المعلقة فوق الرءوس ، فى اهتمام شديد ..

ـ « إنها ستعود لزوجها .. لقد تخلى عشيقها عنها .. »

قالتها الفتاة وهى تتابع أحداث المسلسل المعروض على الشاشة ، والذى يظهر بطلة ما تتحدث إلى بطل ما .. فى مشهد ما ..

ـ « لكنها ستتركه بدورها وتهرب مع رجل آخر ..

أما هو فسوف يحبّ زوجة هذا الآخر .. إن (ريدج) يعرف ما يفعله حقًا .. ولد (مِخلّص) حقيقى .. »

قالها الفتى بدوره دون أن يكف عن متابعة الشاشة بعينيه ..

هنا انبرى الرجل الجالس على العرش يقول لـ(عبير) :

ـ « على كل حال .. أعتقد أننا مدينون لك بتفسير ما .. قبل أن نزيلك من الوجود .. هذه هى الحقيقة المريرة .. أنت فى الواقع لا شىء يا (عبير) .. مجرّد فتاة قبيحة فقيرة تهوى أحلام اليقظة .. وقد بنيت عالمًا كاملاً من هذه الأحلام .. واعتدتِ أن تجعلى منه مهربًا سحريًا من واقعك المرير .. لكننا ها هنا كى نضع النقاط على الحروف .. »

وأشار بمخالبه إلى صدره .. وقال :

ـ « لنقل إننى أنا الواقع ذاته .. بقسوته .. بشراسته .. بمخالبه .. ليس هذا كلامًا فلسفيًا أو رمزيًا بل هى الحقيقة كلها .. ولا شىء سواها ..

إن سلطانى يتضخم كل يوم هاهنا .. أنا الذى التهمت هذه المملكة كلها .. التهمت (هاملت) و(روميو)

و(ليام) و(ماكبث) و .... و .... كلهم لا مكان لهم فى عالمى .. إنهم خيالات صنعها حالم مثلك اسمه (وليم شكسبير) .. وأنا لا أطيق الأحلام ولا أحتمل الخيال .. »

والتمعت عيناه أكثر فأكثر .. وهتف :

ـ « لقد التهمت مملكة (شكسبير) بأسرها .. وغدًا أزحف إلى قطاع آخر فى (فانتازيا) .. وبعد أيام لن تكون هناك (فانتازيا) .. لن يكون هناك سوى واقع مرير قاس .. وسيتعلم الناس كيف يعيشون بلا أحلام .. »

لم تستطع (عبير) الكلام من فرط هلعها .. فواصل هو ثرثرته :

ـ « إن الحيوانات لا تحلم .. إنها سعيدة بلحظتها الحاضرة راضية بها .. فلماذا يحاول الإنسان أن يتحذلق ؟ »

هنا وجدت (عبير) أحرفًا تقولها .. فسألته مرتجفة :

ـ « و .. ومن هؤلاء ؟ »

ـ « إنهم جندى المخلصون .. »

وأشار إلى الفتى ماضع اللادن .. قائلا :

ـ « إن (شكسبير) العظيم لم يبتعد كثيرًا عن الحقيقة .. فهذا هو (الابتذال) أخلص حلفائى .. إنه مقزز فخور بما هو عليه .. أما هذه .. »

وأشار إلى الفتاة :

ـ « فهى (السطحية) إذا أردتِ أن تسميها كذا .. عقل أجوف .. تبرج صارخ .. فهم مسطح لكل أمور الحياة .. »

ثم أشار إلى الجلوس حول المنضدة :

ـ « هذا هو (القبح) .. »

كشر (القبح) عن أسنان صفراء نخرة ، وهرش رأسه الملىء بالدمامل فى تلذذ .. وعاد يتابع التلفزيون ..

ـ «وهذا هو (الحمق) ..و(العدمية)و....و.... »

ثم أشار إلى الشاشة فوق رأسه ، وأردف :

ـ « وبالطبع لا ننسى التلفزيون وكل الوسائل المرئية .. إنها تجعل الناس فى غيبوبة دائمة ، عاجزين عن الحلم .. أكثر كسلاً من أن يقرءوا أو يفكروا .. وبهذا يكتمل انتصارى .. »

وفرك كفيه فى سرور :

ـ « إننى أرى اليوم الذى يفترس فيه الواقع الناس طيلة اليوم ، يفترسهم فى زحام المواصلات .. فى العمل .. فى لقمة العيش .. ثم يعودون إلى ديارهم الضيقة ليشاهدوا التلفزيون فى بلاهة فاغرى الفم .. ثم ينامون .. وينجبون أطفالاً أكثر منهم تعاسة .. يحمل كل طفل منهم حمق وحول عينى أبويه .. »

من بين أسنانها قالت :

ـ « لقد كنت متوحشًا فى تخلصك من أبطال (شكسبير) .. »

ـ « لا بد من التوحش مع السرطان يا عزيزتى .. إننا نقطعه بالمبضع ونحرقه بالإشعاع .. فلو تركناه لأفلت الأمر من أيدينا .. »

هتف الفتى ماضغ اللادن فى تظرف :

ـ « إدّيله ماتريحوش ! »

سألت (عبير) وهى تحكم وضع عباءة (هاملت) على كتفيها :

ـ « حسن .. أنا الآن فى قبضتكم .. فماذا تريدون منى ؟ »

انفجروا يضحكون .. مما أثار حنقها .. فصاحت :
- « تريدون منى أن أكف عن القراءة ؟ »
- « بالعكس .. نريد منك أن تكفى عن الحياة ! »
وفى اللحظة التالية مدّ الفتى المبتذل يده إلى جيبه .. وأخرج مطواة زنبركية فتحها .. وشهرها فى وجهها .. إن المطواة تلائم طابعه على كل حال ..
قالت وهى تتراجع إلى الوراء :
- « لن تستطيعوا إيذائى .. »
- « أعطينا سببًا وجيهًا واحدًا يا (عسل) .. »
- « لأنكم .. لأنكم جزء من الحلم .. أنا المسئولة عن صنعكم .. والحلم لا يقتل الحالم به .. »
قال الواقع من على عرشه فى صوت رصين :
- « أنت نفسك حلم .. هل نسيتِ ؟ إن موتك سيجعل (فانتازيا) بلا وجود .. »
- « سيحلم كثيرون غيرى .. حتى لو مت أنا .. »
- « ربما .. لكن جنودى يعرفون ما ينبغى عمله .. إن الواقع يزداد مرارة .. والحلم يزداد عسرًا .. وسيأتى يوم يكون فيه الخيال بضريبة باهظة .. »
ومن أبواب القاعة الجانبية ، برزت عشرة ذئاب

مكشرة عن أنيابها ، واستل الحراس سيوفهم .. وعرفت (عبير) أنها ستتحول إلى طبق من الكفتة بعد قليل ما لم تجد حلاً ..
قالت الفتاة السطحية وهى تتمايل على النغم :
- « سيكون منظرًا بشعًا .. أنا لا أطيق الدماء ! »
ثم نسيت الأمر برمته .. وعادت تتابع المسلسل على الشاشة ..
نظرت (عبير) إلى ما يحدث حولها .. وراح شىء ما يصرخ فى عقلها بجنون : احلمى يا (عبير) .. احلمى ! إنهم لا يطيقون الحلم ..
ولكن كيف تحلم بينما الذئاب تحيط بها .. والسيوف مشرعة فى وجهها ؟
أغمضت عينيها وراحت تتخيل ..

★ ★ ★

إنها تملك جناحين .. ترفرف بهما وسط المروج .. تعلو فوق الحارة التى كانت تعيش بها .. تدنو من السحب ..
وترنو لأسفل فترى البشر كالنمل .. الشوارع كشقوق فى قطعة (سيراميك) .. السيارات كما تبدو فى لعبة فيديو هائلة الحجم ..

إنها تحلم بالدنو من القمر .. ترفرف حوله .. يرمقها الوجه الضاحك فى شغف .. وتحلق .. تحلق .. تحلق ......

★ ★ ★

ملامح الانزعاج فى وجوههم .. أكثرهم تراجع إلى الوراء ..

بعضهم ملقى جوار الجدار يتلوى ألمًا .. و(الواقع) يهتف من فوق عرشه فى عصبية :

ـ « امنعوها يا حمقى ! لا تدعوها تركز تفكيرها ! »

هنا قررت أن تواصل خطتها الناجحة ..

★ ★ ★

فى بلاط الملك (لويس الرابع عشر) .. المتآمرون يخرجون سيوفهم من قرابها .. ويحيطون بالعاهل المذعور الذى لم يفهم بعد ..

ولكن .. يتهشم زجاج النافذة .. ويدخل القاعة ذلك الفارس الرشيق الملثم .. يبارز المتمردين واحدًا واحدًا .. يطعن هذا .. ويهشم سيف ذاك .. ويركل ذين .. ثم يسقط اللثام عن وجهه .. فيهتف الملك فى ذهول .. إنها فتاة ! نعم هى فتاة .. و(عبير) على وجه الدقة ..

شعرها ينسدل على كتفيها وهى تبارز .. تبارز .. تبارز .

★ ★ ★

الضربات تنهال عليها .. لكنها دفنت وجهها فى كفيها ، ولم تكف عن الحلم .. وتسمع صراخهم .. وسقوطهم .. ومحاولتهم لمنعها ..

وهوى سيف إلى جوار رأسها حيث ركعت على الأرض ..

مدّت يدها إليه .. كانت تعرف ما ينبغى عمله .. أمسكته كالرمح ، وأحكمت التصويب .. ثم رمت به .. فطار فى الهواء ليستقر فى شاشة التلفزيون المعلقة فوق رأس (الواقع) ..

كر ا ش ش ش !

تحولت الشاشة إلى شظايا .. وسمعت الصراخ :

ـ « لقد دمرته ! حطمت التلفزيون ! »

ـ « امنعوها من مزيد من التخـ ...... »

★ ★ ★

هى فى الأدغال .. ترتدى قميصًا وحذاءً ذا رقبة .. وفى يدها بندقية .. الخرتيت ينقض عليها .. إنه مصمم على تدميرها .. تحبس أنفاسها .. وتضغط

الزناد .. بوم ! لكن الوحش مستمر فى اندفاعه .. بوم أخرى ! رأسه ينفجر بالدماء لكنه مستمر فى الركض نحوها ..

تثب إلى أعلى لتتعلق بجذع الشجرة ، فيمر الوحش ما بين ساقيها .. و .....

★ ★ ★

كان هدفها واضحًا هذه المرة ..

سيف آخر فى قبضتها .. أمسكته وهرعت نحو كرسى العرش .

نظر لها شاغر المقعد فى غباء عاجزًا عن التملص .. فقط سألها :

- « مـ .. ماذا ستفعلين ؟ »

- « سؤال سخيف .. »

وبكل قوتها أولجت السيف فى صدره ، فأصدر عواءً مريعًا .. عواءً يحوى كل صراخ القتلى فى الحروب ، وآلام الجرحى ، وهدير الحافلات ، وغبار المصانع ، وسباب الرعاع ، ونباح الكلاب المسعورة ..

كل ما هو ردىء ومقيت ..

وانفجر الدم من فمه .. وتحسس بطنه .. ثم هوى أرضًا ..

تدحرج جسده على درجات السلم .. ثم همد تمامًا ..

عندها بدأ القصر كله يهتزّ .. وراحوا يصرخون .. قطع حجارة عملاقة تهوى من السقف لتهشم من تهشم .. وتطحن من تطحن ..

لكنها لم تخش شيئًا .. القصر ينهار بعد وفاة صاحبه ..

ابتسامة قاسية ارتسمت على ثغرها وهى ترمق هذا كله ..

ووسط الفوضى والغبار رأته قادمًا نحوها فى تؤدة .. القلم فى يده .. واليد الأخرى فى جيبه .. وقد بدا كأنه لا يبالى بكل هذا الهراء والصخب من حوله ..

- « مرحبًا يا فتاة .. »

- « مرحبًا يا (مرشد) .. لقد حان الوقت .. »

- « كانت مغامرة جيدة .. وأردت أن أعطيك وقتًا .. لا بد أنك تفهمين هذا .. »

واصطحبها إلى خارج القصر بينما أصوات الانهيارات تصمّ أذنيها .. وقال لها وهو يتأبط ذراعها :

- « يمكن القول إنك - حرفيًا - استطعت بالخيال أن تصرعى الواقع .. وأن تحطمى الابتذال والسطحية والقبح ! »

سألته :

- « وماذا عن عالم (شكسبير) ؟ »
- « سيعود كما كان .. لقد أنقذته وأنقذت (فانتازيا) كلها من خطر داهم .. ولكن أبطال (شكسبير) لم يموتوا .. كانوا أسرى فى هذا القصر .. »
- « وماذا لو عاد الخطر من جديد ؟ »
ابتسم وقال وهو يرمق الأفق :
- « سنفعل ما نفعله دائمًا .. »
وهتف فى لهجة تقريرية :
- « سنغمض عيوننا .. ونحلم ! »

★ ★ ★

لقد انتصرت (عبير) على الابتذال والسوقية إلى حين ..
أما الآن فلسوف نخوض معها مغامرة لها طابع خاص وسط الأدغال حيث القردة الثائرة وأكلة البشر والأسود والنمور والتماسيح والثيران البرية .. وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة قاسية ..
لكن (عبير) لن تكون وحدها .. بل سيكون معها - بالإضافة لنا - قرد أبيض وسيم قوى .. اصطلح الناس على تسميته (طرزان) .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

روايات
مصرية للجيب

الاسم : شكسبير

.. وكان هذا الخطر يتهدد عالم (شكسبير) .. بل يتهدد (فانتازيا) كلها .. وفى الأعماق تردد السؤال الخالد : ماذا يحدث هاهنا ؟..

أنتم لاتعرفون الجواب ، وكذلك نحن .. لهذا دعونا نقترب أكثر .. ونحاول أن نفهم .. فى هذه المغامرة ذات الطابع الفريد ..



د. أحمد خالد توفيق

١٥
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٤